غِـــريَـــان
الـعَـنْـبَـرُود

بيانات رواية غربان العنبرود:

- الرواية: غِربَان العَنْبُرود
- الكاتب: هشام المهدي
- النوع: رواية
- تحرير وتدقيق وفكرة ولوحة الغلاف وكلمته: رياض حَمّادي
- تصميم غلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- المقاس: ١٤.٨×٢١ (a5)
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية ، نوفمبر ٢٠٢٥
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٣٧٨ لسنة ٢٠٢٤. رقم الإيداع في الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق، القاهرة: (٣٠٣١٦/ ٢٠٢٥)
- الترقيم الدولي، بالتعاون مع دار دان:

٩٧٨ -٦٣٣ -٨٢٨٤ -٢١ -٣

فازت هذه الرواية بجائزة السـرد اليمني (حَزاوي) ٢٠٢٤، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسـسـة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسـمح الاقتباس في حدود الدراسـات والمقالات مع ضـرورة الإحالة إلى اسـم الكتاب وكاتبه وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية". وما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلف لأخذ إذن خطي.

حزاوي HAZAWI جائزة السرد اليمني

YKB بنك اليمن والكويت يلهم المستقبل YKB Inspiring the future yk-bank.com

حزاوي HAZAWI للتنمية الثقافية

(روايـــــــــة)

غِرِبَان

العَنْبَرُود

تأليف

هشام المهدي

٢٠٢٥

HAZAWI
للتنمية الثقافية
YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

١

أسراب غربان تقطع الشوارع فجرًا، وتتعلق على قضبان النوافذ ومسارب المياه وأسطح المباني، وكلما نعق أحدها أو رفرف بجناحيه أمام أفراد الحارة اهتز شيء في وجدانهم يجرجر معه ذكرى قديمة ظن الجميع أنها وئدت منذ عشرين عامًا بالفعل.

وقتها أيضًا فعلت الغربان ما تفعله الآن: خطواتها العرجاء ذاتها، وعجرفتها ذاتها، وربما الوجوه ذاتها أيضًا. وباستثناء عائلة المَذْحَجي التي اكتفت بالمراقبة من بعيد، بذل الجميع قصارى جهدهم للتخلص من الغربان؛ ظهرت الفزاعات فجأة- كتلك التي نعرفها في الأفلام- أمام المحلات وفوق الأسطح وحتى في باحات المساجد، وبدأ المراهقون يشعلون حرائق ليلية، ويلاحقون أعشاش الغربان، ويبحثون عن أي صغارٍ يمارسون عليهم مهارات الصيد. ولم يكن يهدأ بال أحد إلا إذا حاول أن يهش غرابًا أو اثنين كلما خرج لتدخين سيجارة أو استنشاق نسيم الصباح البارد.

الحقيقة أن الغربان لم تكن مألوفة في هذه المنطقة غربي صنعاء، لا لقلة حيلة الغربان القادرة على التكيف مع تضاريس أصعب من هذه، بل لأنها ببساطة لم تحبذ يومًا استيطان مرتفعات غربي صنعاء تلك، ونادرًا ما رأى عابر غرابًا متجولًا قرب هذا الكهف أو ذاك. وغالبًا في سنوات القحط، الغربان لا تأتي

إلى هذه الأنحاء، ولا يناسبها هذا المكان، إلا أنها أتت على أي حال، فجأة، ودون أي بوادر توحي بقدوم كل هذه الأفواج، ولم يحصل أن عرفت الحارة الغربان قبلها إلا مرة واحدة، ارتبطت في ذاكرة الناس بمقتل سليم العليمي، واختفت بعدها كما حضرت دون سبب ظاهر أو تدخل بشري.

إلا أن الغربان وحدها لا تكفي لاستحضار كل هذا القلق في حارة كبيرة وعنيدة كحارة العنبرود. ثمة آيات أخرى تدعو إلى الخوف، ظروف متشابهة، يعرفها أكثر من غيرهم عاقل الحارة ورجالاته، ولا تتوقف زوجته والنساء عن تداول دلالاتها. فقط عائلة المذحجي، التي انتقلت إلى أطراف الحارة قبل شهر ونصف، لم تكن تفهم ما يجري حولها، ولم تكن لتعي تشابه ظروف وصولها مع تلك التي رافقت وصول بيت العليمي قبلهم بعشرين عامًا. إلا أن ما أثار استغرابها أكثر، هو محاولات المؤجر الخجولة والمترددة لإلغاء عقد إيجار يدرك تمام الإدراك عجزه أمامه، خصوصًا وأنه قد أحرق مقدّم الأشهر الثلاثة الأولى على عرس ابنه قبل أسابيع، وهو- رغم كل هذا- لم يحاول أن يفصح عن سبب هلعه وتغيير رأيه المفاجئ، وتحجج تارة بأن ابنه المتزوج حديثًا كان يتمنى تلك الشقة تحديدًا، ليُسمع بعدها خطيب الجمعة وهو يؤكد على أهمية وضرورة بر الآباء بأبنائهم، ويتحجج تارة أخرى بأن أقارب له قادمون من القرية للعلاج بحاجة عاجلة إلى سكن طويل الأمد، ليؤكد الخطيب في خطبة طويلة بعدها على قيمة صلة الرحم، وعقاب قاطعيها.

الأمر بدا أشبه بحالة فزع جماعي غرائزي، يشبه في طبيعته وتجلياته فزع الطيور والحيوانات استباقًا للكوارث الطبيعية. لا حاجة في مثل هذه المواقف إلى تواصل صريح، ولا إلى قائد يوجه المرحلة، إذ يتصرف الجميع وفق غريزة بقاء تدفعهم في اتجاه واحد، ثم يؤكّدون بهستيرية ما يخشونه، فيتضاعف الهلع ويتيقّن الناس أكثر أن مخاوفهم لم تخدعهم.

ربما لم يكن ليبلغ الأمر هذا الحد في مكان آخر، وبين أناس آخرين. لكنه وقع هنا بالذات، في ما أسماه الشيخ المؤسِّس: حارة العنبرود.

> "وقف الشيخ على رأس جبل، إذ كان في طريقه إلى صنعاء، هاربًا من ثأر قديم." كما يؤكد أكبر شيوخ الحارة، ويواصل: "وتأمل بقعة أرض حدث وأن كانت شبه كثيفة الأشجار، وبدا له لوهلة أن شكلها يشبه العنبرود."

إلا أنه، مثل كل الأساطير، وأشباه الأساطير، فقد برزت مرويات متناقضة تحاول تفسير اسم الحارة عبر العقود الماضية: "سماها الشيخ حارة العنبرود لأنه حين وصل إليها رأى القرود تأكل العنبرود"، يؤكد عاقل الحارة في كل مناسبة، ويواصل: "هذه أرض خير، تربتها لا تزال تحمل خصوبة الغابات تلك، ومن العار أننا استبدلناها كلها بالأسمنت والقمامة".

يدعي آخرون –على النقيض– أن اسم العنبرود ليس إلا تحريفًا لاسم يهودي قديم، إذ كان لليهود معبد يترددون إليه في هذه الأنحاء قبل زمن، وأصر رجل واحد فقط، لا يذكر عنه الناس إلا أنه قتل قبل عشرين عامًا، على أنه تحريف

لاسم حميري أو قتباني. أما الأطفال فيتغنون بألحان فيصل علوي مصرين أنه حين يغني عن العنبرود فهو يقصد حارتهم، أو أن حارتهم سميت تيمنًا بأغنيته، فيختلط عليهم الأصل، ولا يكفون عن الغناء.

أما أولئك الذين لا يهمهم الشيخ المؤسس، أو لا يجدون ما يضيفونه إلى القصص المتداولة حول اسم الحارة، فينخرطون في جدالات لا يتضاءل صداها حول أسبقية وصول عائلات دون غيرها. يعود الرجال والنساء في ليالي الخميس إلى فراشهم لا ليتبادلوا الحب، بل ليسكبوا على بعضهم حنقهم من الجارة التي أصرت على أن أم جد فلان هي حفيدة أحد أبناء الشيخ، وأن إحداهن أقسمت لها بهذا على المصحف، وليمحصوا مع بعضهم امتعاضهم من الجار الذي رمى شاله على الأرض في إصرار على أن بيت ابن عمه كانوا من أوائل الواصلين إلى الحارة، وبنوها بسواعدهم مع الشيخ المؤسس.

ينسكب الأزواج في ليالي الخميس هذه وجعًا وحنينًا إلى الأمس، ويتلوون سويًا مؤكدين لبعضهم أن تلك الجارة تكذب، وذاك الجار مكابر، ويؤكد كل زوج للآخر أن جده هو، وعائلتها هي، من قطع الشجرة الأولى، وأسس البيت الأول، بعد الشيخ المؤسس بالطبع، وينامون منتشين بانتصاراتهم الغرامية.

❊ ❊ ❊

٢

الحقيقة هي أن الحارة في أصلها كانت ملجأ للهاربين والمعدمين في تلك الفترة. الإشاعات التي انتشرت عن رجل يحطب في الجبال ويتجهز لبناء بيت بمفرده أثارت فضول البعض، وطمع آخرين، ولكنها كانت مغامرة لم يتجرأ الكثيرون على دخولها، اللهم إلا أولئك الذين تقطعت بهم السبل: مجرمون هاربون من العقاب، مديونون من القرى المجاورة، وفقراء لم يبق ما يربطهم بالمدينة، وتبعتهم- بعد أن بدأت المنازل تنبثق واحدًا تلو الآخر- بعض الأرامل ويتامى متمردون.

كان يكفي أن يذهب أحدهم طالبًا غوث الشيخ واللجوء إليه ليحصل على وعد بالحماية وقطعة أرض يسدد قيمتها غالبًا بالعمل، وأحيانًا بخدمات أخرى مجهولة التفاصيل. لم يكن بيد الشيخ أي سلطة حقيقية تُمكّنه من إطلاق مثل تلك الوعود، لكن المعدمون كانوا يعرفون أنه يشبههم، ويعرفون أنه واحد منهم، وأن حاجته إليهم لا تقلّ عن حاجتهم إليه. هذا العقد الصامت بينهم كان أكثر من كافٍ لتكوين وحدة مجتمعية تحقق القدر الأدنى من التكافل، وتتميز عن غيرها بتنوع العلاقات، التي بتلاحمها، هيأت الطريق لظهور حارة خارج مناطق الصراع والنفوذ، لا تجذب أحدًا مواردها المعدومة، ولا يهمهم سكانها، بل ووصل الأمر إلى حالة قضائية- يتيمة

ربما، ولكن مهمة- نفي فيها رجل إلى حارة العنبرود إثر اكتشاف خيانته لزوجته وسرقته لذهبها.

حارة العنبرود، كغيرها بطبيعة الحال، لا تعدو كونها مساحة جغرافية ضيقة، غير قابلة للتعريف إلا في إطار انتمائها لمدينة ما، وإن كان ما سعى إليه الشيخ المؤسس أقرب في أساسياته إلى القرية منه إلى غيرها، إلا أنها عرفت بحارة العنبرود منذ اليوم الأول، ويؤكد الشُّيّاب في كل فرصة سانحة:

"كان الشيخ ذو بصيرة لا تضاهى؛ فمنذ أن رأى حوض صنعاء توقّع اتساعها، ولم يكن أحد يتخيّل أن تمتد المدينة إلى ما وراء الحارة، ولكنه توقع ذلك. وفي النهاية، ولو بعد سنين، أتت إليه صنعاء ولم يذهب هو إليها."

إلى الغرب من الحارة تمتد سلسلة جبال تصل شمال الحجاز، وتبدو للناظر من أسفل كجدارٍ عملاقٍ تداعب الشمسُ نهاياته، خصوصًا عند نسمات الغروب، حين تنغمس الحارة في حمرة ناعمة. وعلى سفح الجبل بدأت المنازل الجديدة تتسلّل، بعشوائية غالبًا، بحثًا عن مساحات تتسع للرؤوس الجديدة المنبثقة كل عام. منحت هذه البيوت أصحابها- دون قصد في الغالب- منظرًا جديدًا على الحارة، كان في البداية مصدر خلافات كثيرة؛ إذ لم تعد النساء يأمَنَّ صعود الأسطح، ستُكشف أسرار البيوت وستُهتك حرماتها. لكن "العاقل" حينها أقرَّ مشاريع البناء تلك، وبعدها بقليل راجت إشاعات- لا سبيل للتحقق من صدقها- عن رشاوى تجلّت في سيارة جديدة،

وجنبية "صَيْفانية" زيّنت خاصرة العاقل.

أما من الجهات الثلاث الأخرى، فتنهض مرتفعات طفيفة متداخلة في بعضها، كأنها سور يعزل الحارة عما سواها. هذا العزل الجغرافي، مقرونًا بغياب أي دوافع توسّع سوى نحو الغرب، منح الحارة هوية ثقافية خاصة، اتفق الناس على أن ينحتوا بعضهم بملامحها، ويتدافعون في حيواتهم المتعاقبة نحو تشكيلها، وتنقيحها، حتى يبدو سكان الحارة، لزائريها، كأبناء جدة واحدة، وكأنهم تناسخوا أوجه بعضهم في تزاوجهم داخل إطار ضيق، لم يلعب تمايز جيناته دورًا في إكسابه أي تنوع خلاق، حتى أنه صار بالإمكان الإشارة إلى رجل من حارة العنبرود والقول -بثقة- بأن كل رجال العنبرود مثله، ولا بد من تقريعهم جميعهم، إذ يستوي عندهم الحسن والقبيح، وتستوي في حساباتهم أصابع اليد الواحدة، دون أن يُعد هذا مبالغة، أو أن ينكره أبناء الحارة أنفسهم. ذلك أنهم يخلقون عزلتهم هذه بوعي، ويبتسلون في حماية فرادة هويتهم، حتى يجد كل من يدخل إليها ممانعة ومقاطعة لا ينجو منها إلا القلة، وآخرهم بيت المذحجي.

ليس الأمر وكأن أحدًا ممنوع من دخول الحارة. يدرك الجميع هناك أنه مجتمع مهاجر انضم إلى شيخ مجهول وهارب تاركًا وراءه كل شيء. ولطالما غلب تعاطفُ الناس تجاه المعدمين الجدد نزعَتهم الانعزالية؛ فيساعدونهم في بناء منازل، ويبيعونهم أراض خبأوها لمثل هذه المواعيد. لكن ما يهدد الحارة أكثر من غيره هو نظام الإيجار الجديد، فالمعدمون يأتون

إلى هنا للبقاء، وسينصهرون عاجلًا أو آجلًا في نسيج النزاعات المغلق، وسيشبهون الآخرين، كما سيشبهونهم. أما المستأجرون، فهم على النقيض، مستعدون للرحيل في أي لحظة، يحزم غالبيتهم حقائبه في يومين، ويتأكد أغلبهم من أن كل ما يملك قابل للنقل والترحال.

بهذا صار المستأجر مرادفًا للتغيير في حارة العنبرود: تقلبات لا تنتهي، تيارات تفيض بالحارة إلى ما وراء أسوارها الجبلية. وحين حاول كثيرون منع تشييد أي بناية تتجاوز الطابقين، ظهرت من جديد شائعات عن أحزمة ذهب جديدة ترتديها زوجة العاقل. وكما في المرة الأولى، لم يكن ثمة سبيل للتحقق من صحتها.

يتحدث الناس كثيرًا في حارة العنبرود، ينساب الناس هنا في الكلمات التائهة التي لا يلقون لها بالًا، ويتركون لمخيلاتهم تسيير الحياة بما يتوافق مع الكلمات. الرجال الذين يجتمعون في باحة المسجد بين المغرب والعشاء، يشبهون الرجال الذي يجتمعون في الدواوين بين العصر ومنتصف الليل، ويشبهون كذلك الرجال الذين يتكئون على الأرصفة أمام مدرسة البنات؛ جميعهم يتحدثون، أكثر بكثير مما يجدر بالرجال أن يتحدثوا. وهم إذ يختلفون عن النساء في محتوى حديثهم المنشغل بالتاريخ والأملاك والسياسة وقساوة الجبال، فإنهم لا يقلون عنهن حدة وكثافة، ويشتركون معهن في انشغالهم بكل أمور الحارة، وتذكيرهم الدائم لأنفسهم بأهمية أن يبقوا على طبيعتهم، يتناقلون أخبار فلان وفلانة، إذ لا يمكن أن يفر خبر عبر

شقوق الجبال قبل أن تلتقطه أسماع الرجال هنا قبل النساء.

أما حين تتحدث النساء فإنهن يشكلن تجمعات مرسومة بعفوية خالصة تنتقل النساء بينها دون حرج، حتى تنساب الأخبار بسلاسة مع الريح، وكأنها انبثقت من كل مكان، وإلى كل مكان دفعة واحدة. بإمكان نساء العنبرود أن يسلبن لب المستمع أيًا كان ما يتحدثن عنه؛ بإمكان الواحدة منهن أن تبدأ في شرح طريقة تحضير بنت الصحن، أو كم من العجيب أن زوج منيرة لا يرجع إلى البيت إلا في منتصف الليل، أو كيف أنها لم تطق غسل مؤخرة طفلها الأخير، ويبدو كل هذا بالقدر نفسه من المتعة لدى المستمع، أي مستمع.

هذه الملَكة التي تنفرد بها نساء العنبرود هي ثمرة تنقيحٍ دائم، إذ لا نساء من الخارج يعكّرن صفو الأحاديث أو يقطعن انسيابها. لا تفعل النساء هنا شيئًا مميّزًا سوى الكلام؛ فلا مزارع، ولا وظائف، ولا مدارس، والقليل فقط من الأطفال، خمسة في الغالب.

أما ما دفع نساء العنبرود إلى صقل عذوبة أحاديثهن فربما يرتبط بتشابه أشكالهن التي أنتجتها العزلة، وتجلياتها الجينية، حتى صارت أمهر النساء هي تلك القادرة على أن تسحر أكبر عدد من الرجال في وقت واحد وبأقل عدد من الكلمات. ولهذا يتنافس الرجال غالبًا على النساء اللواتي بمقدورهن مجاراتهم في الكلام، ونقل نفحة من تيار الأخبار المتنقل ذاك إلى أحضانهم.

❊ ❊ ❊

٣

لم تأبه عائلة المذحجي لكل هذا في بادئ الأمر، الأب خجول ومنطو نسبيًا، وتعجبه عزلة الحارة. الأطفال يغنون لفيصل علوي وينسجمون بسرعة، كما يفعل الأطفال عادة، لا لشيء سوى لأنهم لا يفكرون، ولا يتحدثون، بل يظلون أطفالًا فحسب.

الأم وحدها كانت تستشعر أمرًا غريبًا لم تجد يومًا ما تصفه به. كان كل شيء يسيل من خلالها دون أن تقدر على الإمساك بخيوطه، وفي كل مرة كانت تتجه متذمّرة إلى زوجها:

"الصرير في أذني لا يتوقف، الناس هنا يتحدثون عنّا، لا بد من أنهم يفعلون، منذ وصلنا والصرير لا يحتمل."

يحاول زوجها تغيير الموضوع أو مجاراتها، بينما عيناه مسمّرتان على الكلمات المتقاطعة في جريدة اليوم، أو على شاشة التلفاز متى توفرت الكهرباء. لم تيأس زوجة المذحجي بهذه البساطة بدورها، ولم تجد بدًّا من أن تحاول الانتقال بين مجالس النساء كما رأت غيرها يفعلن، فانتهى بها الأمر في فقاعة يتقاذفها التيار، بالكاد تعي ما بخارجها، ولا حيلة لها سوى الانجراف بعيدًا وراء شكوكها الكثيرة في أن الجميع هنا لا يطيقها، وقد كانت محقة بالطبع.

ما لم يخطر على بال زوجة المذحجي أن الغربان كانت قادمة لتغير كل شيء. لم تكن قد رأت غرابًا من قبل، ولم تعرف عنهم إلا بوصفهم نذائر شؤم، وهو ما عزّز من رجائها الدائم لزوجها بالفرار من هذه الأرض المشؤومة. طلبات المؤجِّر الأخيرة بإلغاء العقد كانت مفاجئة، ومثالية كذلك، وبراز الغربان على النوافذ والملابس المعلقة على الحبال حججًا ممتازة أيضًا. لكن المذحجي لم يكن ليتزحزح؛ فإيجار الأشهر الثلاثة الأولى لا يزال يحزّ في قلبه إلى اليوم، وجيوبه لم تشفَ بعد من تكاليف النقل الأخير.

ما لم يذكره لزوجته، على أي حال، هو أن الحارة أعجبته. خطب الجمعة الأخيرة مزعجة قليلًا، خصوصًا أن صوت الخطيب حاد بعض الشيء وخطبه طويلة للغاية، لكن كل شيء آخر كان كما يحبه: لا عزائم تعكّر صفو نهاره، لا غرباء يستجدونه ليشاركهم كوب شاي، المكان آمن نسبيًا، وبمقدور الأطفال أن "يَبْترِعوا" —كما يحب أن يعيد ويكرر— في كل زقاق دون الخوف من كلاب شاردة أو سائقين متهورين، والجميع يبدو كما لو أنه يعرف بعضه ويأمن بعضه.

نعم، المدرسة بعيدة بعض الشيء، وكذلك عمله، لكن الباص الوحيد المناوب على صعود الجبل والهبوط إلى شارع الستين كان دقيقًا للغاية في مواعيده، حتى بدا وكأن كل شيء يرتّب نفسه حول ذلك الباص تحديدًا.

وهو، وإن حوصر بتكور كرشه في باص صغير كهذا، مكوّن من صفين يتيمين متقابلين، وإن شعر بحرج شديد كلما ركبت امرأة أو همّت بالنزول، حتى إنه

يفضّل أن ينزل في كل موقف ليخلي لهن الطريق. رغم كل هذا كان المذحجي ممتنًا للدقة التي نظم بها سائق الباص صباحاته، وللصمت الذي يحل داخله، غالبًا بفعل برودة وضجر سائقه.

ليست بالحارة المثالية، وهو يدرك ذلك، والغربان تزعجه بالطبع، إلا أنه سمع مرة، بالصدفة، أنها أتت ورحلت ذات مرة قبل أعوام، فاستنتج أنها، غالبًا، فرت من قحط أو مفترس أو كارثة طبيعية في مكان ما، وستعود مجددًا إلى حيث ألفت.

إذ كان قد قرأ في مجلة ما، قبل أعوام ربما، أن الغربان تكون ارتباطات عاطفية بالأماكن والأشياء، كما هو الحال لدى البشر، وقد يصح القول أنها تعرف موطنها، وستعود إليه، خصوصًا أن حمولتها خفيفة؛ يكفي الطيور أن تفرد جناحيها، وتمتلك الرغبة الكافية، لتجد نفسها في أرض جديدة دون جهد، أما البشر، فليس من السهل أن ينتقلوا، يكلف استئجار شاحنة ثروة صغيرة في نهاية الأمر. ربما كان من الأجدر بالمذحجي أن يشتري سيارة عوضًا عن الانتقال إلى حارة العنبرود. ربما يكون هذا هو ندمه الوحيد في نهاية الأمر، لو أنه اشترى سيارة لكان أسعد قليلًا مما هو عليه الآن.

يؤكد المذحجي لزوجته:

"هل تذكرين الحارة السابقة؟ كنتِ قد أقسمتِ أنك لن تتعرفي على أحد حينها، من كانوا؟! نعم، بيت مُثنّى، أتذكرينهم؟ نعم... بيت مثنى ذاك، كانوا قد سببوا لك كل ذاك الصداع، وأقسمتِ لي بعدها

ألا رغبة لك بأي جيران بعدهم، وما الذي حصل؟ أتذكرين؟ لاا...
ضعي عينيك في عيني، لا جدوى من التهرب، نعم، بعد أقل من شهر
كنت قد تعلقت بكل الجارات الجدد، ولم تتوقفي عن الحديث عن
كم فلانة طباخة ماهرة، وتلك في غاية الجمال، وغيرها لا تتوقف
عن إبهارك بممتلكاتها، لم يأخذ الأمر منك شهرًا وقتها. لا أدري لم
ركبت رأسك منذ دخلنا هذه الحارة، ولكنك لو حاولت قليلًا فربما
يعجبك المكان هنا. وسِّعي صدرك قليلًا، الدنيا سلامات!"

فلا تجد زوجة المذحجي إلا أن تتلوى ممتعضة، فتجرجر عينيها من زاوية إلى أخرى، وتزم شفاهها من ركن إلى آخر، وتتمنى لو أن الرجل المنصب على حل الكلمات المتقاطعة يرفع عينيه قليلًا ليدرك أنها منزعجة أساسًا، فربما يتعاركان، وتستطيع أن تنام بعدها هانئة وقد أطلقت لامتعاضها العنان.

❊ ❊ ❊

٤

من المدخل الشرقي لحارة العنبرود، شقت سيارة طريقها عبر حشود الغربان، صالون من طراز "ليلى علوي" تحديدًا، كما أطلق الناس على ذاك الموديل مؤخرًا. سريعًا بدأ الأطفال يسيرون بجانب السيارة، وخلفها، محتفين بالزائرة الجديدة على الحارة. حاول بعضهم التعلق بمؤخرتها، ويزيح آخرون الغربان من أمامها بالحجارة.

حاول أحدهم أن يمرر كرته القديمة تحت العجلات خلسة، فرجل يقود سيارة كهذه سهل ابتزازه لشراء ثلاث كرات كتعويض، ولكنه أنه لم ينجح. بدا له أن السائق كان يحدق في عينيه مباشرة، وهزته الحروق على جانب وجهه حتى النخاع، فلم يجد إلا أن يترك كرته ويركض مرتعدًا بحثًا عن والدته. أما بقية الأطفال فلم يكن يهمهم سوى الاحتشاد في مسيرات كلما سنحت الفرصة، والسيارات المتهادية على الطرق الترابية الوعرة والمطبات الاصطناعية، خصوصًا موديلات ليلى علوي، كانت سببًا أكثر من كاف ليجتمع ما لا يقل عن عشرين طفلًا ويبدؤون في الغناء.

كانت السيارة في طريقها إلى غرب الحارة. لم يأبه لها أحد في البداية، اللهم إلا مجموعة شباب يقفون أمام محل "الأتاري" حاولوا تقييم السيارة وتجادلوا حول ما إذا كان بمقدور أي منهم شراء سيارة مثلها يومًا، وجاهدوا

خلال كل هذا لاختلاس نظرة إلى السائق والفتاة الجالسة بجواره.

ما لم يتوقعه أحد هو أن تصرخ امرأة فجأة:

"هذا فؤاد العليمي، فؤاد العليمي رجع!"

وتحاول جاهدة التقاط نفسها، ودفع الهواء الثقيل أمام لثامها بحركات أثقل من يديها. وهي إذ صرخت إذ ذاك لم تكن واعية تمامًا لما تقوله، وإلا لما صرخت هكذا، ولكنها فعلت، وأفلتت يد صغيرها لتشير بيدها كذلك. وإذا كان الشباب أمام محل الأتاري لم يستوعبوا تمامًا ما قالته، ولم تجذبهم الصرخة إلا من باب التعجب الطبيعي في مواقف كتلك، فإن الرجال والنساء الذين كانوا قد سمعوا بالاسم يومًا ما لم يجدوا بدًا من الالتفات، ليحاول كل من في الشارع لحظتها أن يسترق نظرة تبدد الشكوك، وسرعان ما تراكم الهمس الخافت خلال ثوانٍ ليغلب أغاني الأطفال ونعيق الغربان:

"فؤاد العليمي رجع."

لم يستغرق الأمر طويلًا لينتشر الخبر. كان الجميع- حتى أولئك الذين لم يعرفوا فؤاد العليمي- على علم بوصوله، وبنوع السيارة التي يقودها، وبعدد مرافقيه فيها، قبل أن تصل السيارة إلى مبتغاها. وكما وصل الخبر إلى كل النساء، بعد أن تلقفه قبلهن الرجال، فقد وصل، بدوره، إلى تهاني بنت حسن الجماعي، أم فؤاد، وزوجة القتيل الشهير سليم العليمي.

كانت تهاني على وشك أن تتهالك أرضًا حين بلغها خبر قدوم الابن الغائب، لكنها لم تفعل. أما النساء اللاتي كنَّ عندها فأسرعن منصرفات، تجمع

الواحدة منهن ارتباكها في حاجياتها المتناثرة، وحجابها المتراخي، وهلَع أطفالها لاكفهرار وجهها.

لم تلاحظ أي منهن أن تهاني -وحدها- لم تتحرك، وهي وإن كانت على وشك السقوط قبل لحظات، إلا أنها تمكنت من استجماع رباطة جأشها؛ فسوت قعدتها، وبقيت تراقب انشغال ضيوفها وتهورهم، واكتفت بأن أشارت إلى آخر الأطفال الخارجين أن يغلق الباب وراءه، وهي وإن بدت هادئة لحظتها، إلا أنها امتلأت بكل صوت يخترق جسدها الفارغ، بسمرة بشرته، ودهونه المترهلة، وتهافته بين السكر والضغط واضطرابات قلب ضعيف. وهي وإن كانت ترتجف على وقع كل تلك الأصوات، فإنها بقيت تنصت، وتحاول أن تميز في صخب اللحظة همس العابرات عن أغاني الأطفال، وعن نعيق الغربان، وعن خطواته هو، ونحنحته التي حاولت جاهدة أن تتذكرها في تلك اللحظة بالذات.

بينها وبينه- كما راودها لحظتها- نافذة كان يكفيها أن تنظر عبرها لترى كيف أصبح بعد كل هذه السنين، وتتأمل وجه الفتاة التي قد تناديها بعمتي، أو جدتي، وتستعيد من عينيه كل الذكريات القديمة، والحنين القديم، والخوف القديم، ولكنها لم تفعل. لم تلتفت حتى والنافذة بجوارها، وتسمرت عيناها على الباب الذي كانت على يقين بأن لديه مفتاحه، وفي المسافة بين عينيها والباب بدا كل شيء ممكنًا. وتمثلت سيناريوهات اللقاء والوداع على اختلاف نهاياتها أمامها، وتفادى الوقت أن يلفت انتباهها إلى مروره خلال

سرحانها ذاك، وتفادى أكثر أن يذكرها بالجسد البالي الذي تركه لها، وتفادى أكثر من كل شيء النظر في عينين ذابلتين بالكاد تقدر نظارتها السميكة على حمل أشلاء الضوء إليهما، إذ ربما يندم على ما فات، ويعدها بما لا يجب للوقت أن يعد البشر الفانين أمثالها، تاركًا إياها والانتظار.

تذكرت تهاني بنت حسن الجماعي كل شيء لحظتها، فلم يكن بإمكانها إلا أن تتذكر، ولاحظت- للمرة الأولى ربما- أن الخدوش ونحت الأقلام قد أبلى الباب، بعد عشرين عامًا، أكثر مما فعلت آثار كسور قديمة، إذ لا تزال رائحة الدهان- التي أدمنتها حينها- تحضرها كلما رأته، فلامتها على أمراض قلبها للمرة الأولى على الإطلاق، وانطلقت تنغمس في كل ذكرى تحضرها، وكل ذكرى اختلقتها لوحدتها طيلة هذه الأعوام الأخيرة، وكل الدعوات التي أودعتها جنبات البيت، والصلوات التي نسيتها عند باب الله، ولم تعد لتتحقق من غفرانه.

أما ما خلف الباب، فتشويش تجاوزته إلى ابنها؛ همس النساء المجتمعات على درج العمارة:

"الله يعينها"،

"أي ابن هو هذا! لا خبر عنه متى ما رحل ولا خبر عنه متى ما حضر"،

"ظننتهم كلهم ماتوا! ما اسم هذا؟ أي واحد منهم هو؟! حقًا؟! لم أكن أعرف!".

ويمتزج به حمحمة رجال يحاولون تفريق الجمع في طريقهم إلى الخارج، إذ ربما يظفرون بمقعد فارغ على درجات دكاكين العمارة، ويكسر أحدهم صمت المقيل القادم مزمجرًا: كنت هناك!

❊ ❊ ❊

٥

سبق حضور بيت العليمي إلى حارة العنبرود– قبل عشرين عامًا– موجة استهجان متوقعة؛ فالمؤجر نفسه كان أحد الوافدين الجدد، ممن أسندوا طوابق أبنيتهم على سفح الجبل، وأحد أبرز المرتبطين بشائعات الرشاوى التي شغلت الحارة لأعوام. والإشاعات التي طالت مراد المرادي (المؤجر) أكثر من أن تُحصى. حضور الرجل إلى الحي، عازبًا في الأربعين من عمره، أثار الشكوك حول ماهية دوافعه، وطبيعة رجل ينوي رفع طوابق فوق أخرى أن يعيش بلا نساء وأطفال!

في الجلسات التي حضرها خطيب الجامع أقسم البعض أن الرجل منحرف، وينظر إلى الأطفال بشهوة مقرفة، وهو ما دفع بعض الآباء إلى تحذير أطفالهم منه. لم تكن غالبية الشائعات صحيحة بطبيعة الحال، هكذا هي الشائعات غالبًا، مادة أساطير وفتيل حروب، وكلما بلغ المرادي بعضها يهز كتفيه ويرفع حاجبيه ثم يواصل أي حديث أو عمل كان يخوض فيه، وإن كان غالبًا مشغولًا بكل ما له علاقة بأعمال البناء، وشؤون المستأجرين.

لا يعني هذا أن الاستهجان لم يطل حضور عائلة العليمي ذاتها، فهم كغيرهم لم يكن مرحبًا بهم وبأثاثهم المحدود الذي أنبأ عن عائلة رحالة، أو معدمة في أحسن الأحوال. كل ما في الأمر أن الاستهجان سبق حضورهم، أكثر من

غيرهم، ولم يخفف وطأته أن الشاحنة التي استأجرها سليم العليمي حملت عبارة "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟"

لاحظ سليم النظرات الفضولية التي أحاطت بالشاحنة ومحتوياتها، وكلما شعر بأعين تلاحقه حدق مباشرة في النوافذ إلى أن تستقر رفرفة الستائر الخفيفة فيها. الأعين الوحيدة التي لم تشح متى ما نظر إليها كانت لمجموعة من الشباب أمام رصيف "بقالة البركة". عندها دخل البقالة، واشترى معمولًا وزعه عليهم، وقبل أن ينتهي كان الشباب يقفون عند الشاحنة، يهش بعضهم الأطفال، ويرفع غيرهم الأثاث فوق أكتاف بعضهم، ولم يستغرق الأمر ساعة واحدة حتى كان كل شيء في مكانه، بتوجيهات من امرأة العليمي بالطبع.

ما لم ينتبه له سليم، رغم يقظته، وربما لانشغاله بملاحقة الأعين المتربصة، هو أن ابنه استغل الفرصة، وركض حاملًا كرته معه، وراء مجموعة أطفال إلى ما خلف الأزقة. ساعة كاملة مرّت قبل أن يبدأ الزوجان في التلفت حولهما والتنقيب: بين الأغراض المبعثرة، خلف الكراسي، تحت الفُرُش؛ إذ ربما دفن الطفل نفسه في هذ الكيس، أو اختبأ في ذاك الدولاب.

وكلما فتحت تهاني بنت حسن الجماعي بابًا، أو رفعت فراشًا عن الأرض، تسلل إلى قلبها بعض التشاؤم والكثير من القلق، وهي التي ظنت أن بمقدورها أن تترك تشاؤمها وقلقها كله في الحارة القديمة، ومع الجيران القدامى، وتغير ظروفها وتفاصيلها القديمة كلها، كما غيرت الحارات وأسماء الشوارع وهويات الجيران، وحتى الأثاث. لم يكن الأمر صعبًا في

مخيلتها. ما خطر في ذهنها لحظتها هو انفعالها تجاه زوجها:

"ابني يا سليم! أين ابني؟ هذا اللي أنت فالح فيه، معمول لعيال الشارع وابنك الله أعلم أينه! يا سليم انزل دور ابني!"

لكنها لم تقل شيئًا، وعادت لتفتح الأدراج ذاتها، وتمد عينيها وراء السجاجيد المائلة نفسها، وأكياس السكر والدقيق، وحقائب الثياب، إذ ربما تكون أخطأت ذرة غبار أو اثنتين ويقفز الولد بابتسامته منقوصة الأسنان مشيرًا بإصبعه إلى وجه أمه المرتعد.

في تلك الأثناء، لم تلاحظ تهاني أن سليم كان قد استقر عند إحدى النوافذ المطلة على مدخل العمارة، غارقًا في الأعين المحدقة من الخارج، محاولًا أن يضع نفسه مكانها، وأن يرى نفسه كما رأته تلك العيون، إذ ربما يفهم: لِمَ انجذبت عيون النساء إليه؟ أو لعله يكتشف أن الزجاج هنا يكسر الضوء بشكل مختلف عن غيره، فتقع النساء في أحضان رجل مثله!

وفجأة، دوّى طرقٌ على الباب، فهرعت الأم داهسةً على قلقها وعلى ألعاب طفلها التي قلبتها جميعًا، قبل أن تصرخ:

- ابني! مو حصل يا فؤاد؟! من عمل بك كذا؟ سليم! تعال يا سليم!
- خير؟!
- خير؟ مو من خير؟

وأشارت إلى ولد بدم يسيل من أنفه، وكدمة على فكه، وورم طفيف في جبهته، والكثير من التراب على ملابسه، الكثير من التراب.

كان فؤاد في الثامنة، أقصر بقليل من أقرانه في العمر ذاته، وله شعر أسود جعد، وندبة تحت شفته السفلى مذ أسقطته والدته في أسابيعه الأولى على حافة السرير. أنفه النازف كان ملطخًا بمزيج مخاطي لزج أكثر مما كان ملطخًا بالدم، إذ كانت عادة لم تنجح أمه في تخليصه منها، حتى لقبته بعد فترة بـ "أبو مخاط"، أملًا في أن يشعر بالخزي، فالخزي- كما ترسخ في ذهن تهاني وقناعاتها وتجاربها التي لم تُطلع عليها أحدًا- لا يقل أثره التربوي عن أي من الأساليب التقليدية الأخرى، بل لعله يكون الرادع الأكثر عنفًا حينما يتعلق الأمر بالحركة داخل مجتمعات تضع لاحترام الذات قيمة وأولوية.

ما لم تحسب تهاني حسابه هو أن ابنها لم يكن يعرف الخزي أصلًا. بدا الأمر أشبه بخلل غريزي بنيوي في تركيبة الطفل. في البدء لامت رحمها على هذا "الفشل الوراثي"، ثم وجدت مخرجًا أكثر راحة: رأت في ابنها فؤاد نسخة مصغرة من زوجها، فحمَّلت سليم وزرًا جديدًا، أسلمت أمرها لله ولاذت بالصمت. أما الطفل فمضى يخطّ على جدران البيت: "أبو مخخخط كان هنا!"

استسلام تهاني لم يكن يعني أنها لا تتأثر بما يفعله ابنها أو زوجها. وهي وإن ظنت أنها قادرة على تحمل التجربة القادمة، فإنها تنبهر من مفاجآتهما بقدر امتعاضها منهما، ولم يشفع لسليم العليمي أنه التفت في تلك اللحظة عائدًا إلى نافذته، بعد أن ألقى ببرود كلماته المشؤومة:

- تعيش وتاكل غيرها! تقدر تتكلم؟ عينك وأذنك سليمين؟ تحتاج مستشفى؟ لو كله تمام، لا خوف عليك. هكذا تصير رجال.

أمسكت تهاني بزوجها من مؤخرة قميصه وأشارت إلى ابنها مجددًا:

- خذ حق ابني!

لكن سليم لم يأبه، وواصل مسيره إلى النافذة، مفكرًا لا في كم هي سخيفة كلماتها تلك فحسب، إذ كان يدرك أنها تتمنى فعلًا لو ينزل ليبرح الأطفال الآخرين ضربًا، بل فكر أكثر من كل شيء فيما إن كانت الجارات قد سمعنها، إذ ربما يدركن كم أن الرجل الذي لم يتمالكن أنفسهن أمامه قبل حين بائس حقًا، وبحاجة إلى بعض الحنان.

أما تهاني بنت حسن الجماعي فلم تكن تعرف ما يدور في رأس زوجها، ولم تكن لتفهم كيف بإمكان رجل أن يتقبل أن يداس على أهل بيته في يومهم الأول هكذا، فبقيت جامدة على ركبتيها تتأمل كتلة الجليد العائمة تلك، وتترك للتشاؤم الذي نثرته للتو فرصة اختراق دفاعاتها من جديد.

لم يحول عيني تهاني عن زوجها إلا إصبع ابنها على كتفها، ولم يساعدها لتفيق من نوبة الهستيريا تلك إلا أنها بدأت ترى بوادر دموع في عينيه، ولم يحرق قلبها أكثر من أن الولد المضروب للتو رفع بيده اليسرى أشلاء كرة مثقوبة إلى مستوى عينيها، ويقول متنهدًا:

- فطروا عليا الكرة!

لينهال عليه فجأة كف والدته، وتسمع في العمارة أصداء الأبواب التي أغلقت على وقع الكف، وكأن الجميع كان متخوفًا من أن يكون التالي.

٦

كان هذا دأب الجارات لأسابيع لاحقة: نوافذ مفتوحة، أبواب تستبدل بستائر، ومقاعد تُنقل من الغرف الداخلية إلى حيث يمكن الإطلالة على بيت العليمي. إذ ربما تنسل من بين الستائر أسرار البيت الجديد. وساعدهن على ذلك أن العمارة كلها أربعة طوابق، وأن عائلة العليمي استقرت في الطابق الثالث، وسط الجارات جميعًا، فيما كان الدور الأرضي نصفه دكاكين فارغة على أي حال.

ما لم تضعه الجارات في الحسبان في تجهيزاتهن تلك هو أن فؤاد، بابتسامته البلهاء، وملابسه الممزقة دومًا عند الركب والمرافق، كان يجد الطريق إليهن بمفرده، رافعًا الستائر دون أي تردد، وواقفًا أمام العتبة يتأمل الداخل ويسرح في تفاصيله. تخوفت الجارات أن يكون الصبي جاسوس والدته، أو رسالة تنبيه، إذ قد تكون رأت ما وراء حركاتهن- الصبيانية هي الأخرى، ولكنهن سرعان ما تيقن في حديثهن معه أن الفتى الواقف أمام عتبة الباب أبله ليس إلا، أو هكذا أعلنت إحداهن في أول المجالس التي انعقدت بعد حضور بيت العليمي، وشبهنه- دون أن تعرف أي منهن لِمَ- بكمال المجنون، الذي جال الحارة قبل سنوات، قبل أن يختفي منها فجأة.

وكأي طفل أبله في موقف كهذا، سرعان ما صارت النسوة يتعاملن معه كغنيمة

في حرب تجسس صغيرة، متنافسات فيما بينهن على استجلابه: فهذه تضع له قطعة حلوى قرب الباب، وتلك تأمر أطفالها بمصاحبته، وأخريات يسحبنه عنوة متى ما لمحْنه يمرّ أمام الباب.

والحقيقة أنه لم يكن من الصعب استدراج فؤاد. كان متاحًا للجميع، يكفي أن تلوّح له إحداهن بلعبة أو قطعة حلوى حتى ينساق وراءها. بل كان في وسع الجارات أن يتقاسمن يومه كله بينهن، ويبقى لديه متسع ليطرق أبواب العمارة المجاورة والتي بجانبها أيضًا. وتوالت الأسئلة بالطبع، ولم يظهر على فؤاد أي تردد في الإجابة عن واحد منها:

- من أين جئتم؟
- من بعيد.
- ألك إخوة أكبر منك؟
- كلهم ماتوا.
- ماذا يعمل والدك؟
- موظف، وأحيانًا عامل، وأحيانًا يبقى في البيت.
- كيف ماتوا؟
- ماتوا، أمي تقول ماتوا!
- كم شقة سكنتم خلال الأعوام الماضية؟
- واحدة، ثلاث، لا أدري! ربما واحدة، أمي تقول أن بيت جدي

كبير... وأن عمتي طباخة ماهرة، بإمكانها أن تعد آيس كريم يشبه ذاك الذي في المحلات، ولكنها لم تحضر لنا أيًا منه.

- هل تحفظ جدول الضرب؟
- حتى الثلاثة، هل تريدين أن تختبريني؟

لم تكن كل أسئلة الجارات منصبة على أحوال عائلة العليمي حصراً؛ سرعان ما استظرفن فؤاد بصدقه وعفويته.

لم تكن كل أسئلة الجارات معنية بأحوال عائلته حصرًا، وسرعان ما استظرفت النساء الفتى بصدقه وعفويته، وتزايد اهتمامهن به. بدا لهن مختلفًا عن سائر أطفال الحي: كتاب مفتوح يستطيع الجميع قراءته، وهذا ما جعله مادة دائمة للأحاديث.

غير أن الولد التقط الحيلة مبكرًا، ولاحظ أن المكافأة تزداد كلما كثرت أجوبته، فصار يؤلف الحكايات ويخترع الأسئلة ويجيب عنها في الوقت نفسه. يروي دون أن يُسأل، ويتحين زياراته لتتزامن مع عودة الرجال محمّلين بسلال الفواكه وأكياس الحلوى. لكن الجارات التقطن كذبه بسرعة، فميّزن الحقيقة من الوهم، وتراجعن عن تشبيهه بكمال المجنون. بل دفعهن ذلك إلى تغيير أساليبهن معه: بعضهن وجّهن أسئلتهن إلى تفاصيل تخصه هو، عن مغامراته الصغيرة ويومه في الأزقة، وأخريات تركنه يلعب على سجيته، وكنّ على يقين أنه، عاجلًا أو آجلًا، سيكشف كل أوراقه بنفسه دون استجواب. فالفتى كتاب مفتوح، وفرصة كهذه لا تعوض لاستكشاف المواهب الجديدة

في الحارة وهي تحاول استكشاف عالم الكلمات وتيارات الأخبار المنقلة.

هذا لا يعني أن النساء قاطعن تهاني بنت حسن الجماعي أو امتنعن عن مشاركتها مجالسهن وسهراتهن. امتداد صنعاء بما وراء الحارة وما دون القلوب، وإرث القبيلة، وأثر الطبيعة التي طبعت نفس اليمني، لم تكن لتسمح بقطيعة كاملة، إلا في حالات نادرة: نزاع على ميراث، أو رحيل نهائي إلى مكان بعيد. لذلك كانت عملية التحام تهاني بالجسد الاجتماعي الجديد بطيئة، لكنها ممكنة. وغالبًا ما بدأت بمبادرات شخصية منها: تحمل طبقًا من الحلوى، وتبحث بعينيها عن أقرب طفل لتسأله:

هذا لا يعني أن النساء قاطعن تهاني بنت حسن الجماعي أو امتنعن عن مشاركتها مجالسهن وسهراتهن. امتداد صنعاء إلى ما وراء الحارة وما دون القلوب، وإرث القبيلة، وأثر الطبيعة التي فرضت نفسها على نفس اليمني ما كانت لتسمح بقطيعة تامة أو حصار شامل، إلا في حالات نادرة: نزاع على إرث، أو رحيل نهائي إلى مكان بعيد. لذلك كانت عملية التحام تهاني بالجسد الاجتماعي الجديد بطيئة، وغالبًا ما بدأت بمبادرات شخصية منها: تحمل طبقًا من الحلوى، وتبحث بعينيها عن أقرب طفل لتسأله:

"أمك في البيت؟! هذا لكم، هنيئًا."

وتقرص خد الطفل قبل أن ترسله إلى الداخل. استمرت محاولاتها هذه قرابة الأسبوعين، وامتدت إلى كل باب في العمارة، وأكثر من مرة في حالة الجارة الواحدة، والحق يقال إن لتهاني حظ التجربة، وهو ما لاحظته بقية النساء

بسرعة. اعتاد فؤاد أن يعود بالصحون ممتلئة- بأكثر مما حملته أول الأمر- إلى والدته، حاملًا رسالة- شبه موحدة المحتوى- من كل جارة على حدة، مفادها:

"تقول لك جارتنا شكرًا! والمرة الجاية تعزمك عندها."

وهكذا صارت الصحون عذرًا كافيًا أغفلت بسببه امرأة العليمي غيابات ابنها الكثيرة، وخروجه المفاجئ أحيانًا من خلف الستائر، وحكاياته المتقطعة عن الأثاث والألعاب والوجبات التي رآها في بيوت الجيران.

أما بعد الأسبوعين فقد وصل تهاني بنت حسن الجماعي رسول من جارتها، على صورة طفلة تتلعثم وهي تلعق حلوى "أبو عودي"، ناقلة إليها دعوة تقول بأنها مرحب بها في بيت جارتها. اكتشفت تهاني يومها أن نساء العمارة الواحدة يجتمعن مرة كل أسبوعين في بيت مختلف، وتبين لها بعد شهرين أن اللقاءات أصبحت أسبوعية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى جلسات شبه يومية، ذات شأن أقل وعدد محدود من المشاركات.

❊ ❊ ❊

٧

بدايات فؤاد في حارة العنبرود، على نقيض والدته، لم تكن سلسة تمامًا، لم يذكر أحد، لا هو ولا غيره، تفاصيل العراك الأول الذي أربك والدته. بدا من الواضح أنه لم يكن مستعدًا بعد للخروج إلى البعيد، ولهذا لجأ إلى زيارات الجارات، والتعرف على ملامح الشارع ودكاكينه، وانجذب أكثر من كل شيء إلى أحاديث الناس، وبقي ينصت، ويترصد أي فرصة للتنصت على أي محادثة عابرة بين رجلين يناقشان أسعار القات، أو طريقة تحضير "الشمّة"، أو عدد الأصابع التي ينبغي أن تمس صحن الأرز، أو نوع العصي الأنسب لنوعيات الأطفال المتباينة واستحقاقاتهم للعقاب.

ولسبب لا يعرفه حتى اليوم، كان لدى الصبي توقع دائم أن يشركه أحدهم في الحوار. كان يتمنى أن يقول شيئًا جديدًا، ويراقب بعدها كيف يزمون شفاههم، ويمررون أصابعهم في لحاهم أو ينتفون شواربهم، ويؤكدون له أنهم يعرفون الأمر مسبقًا، وأن ما يقوله يستحق الحديث عنه مطولًا، أو يختلفون معه ويقسمون بالأيمان المغلظة، حتى تنتهي السجالات بالشتائم ووعود الطلاق. إلا أن ما كان يحدث فعليًا هو أن يزل لسان فؤاد، محاولًا تقليد أصواتهم وألفاظهم، فيفرك خده الأملس بيده مغمضًا عينيه، مستغرقًا في الدور، حتى يضطر الرجال إلى نهره، وأحيانًا رميه بالحجارة.

كانت هذه من أكثر عاداته غرابة، ولم يعرف أحد من أين اكتسبها، ولا حتى أمه التي اعتادت أن تعزو كل خصلة سيئة فيه إلى "جينات فاسدة" تسربت من طرف أعمامه. وإذا كان طبيعيًا أن يخطئ المرء مرة أو مرتين بدافع اندفاع لحظي، فإن فؤاد كان حالة أخرى: اندفاعاته كثيرة ومتكررة، بلا رادع من خجل أو شعور بالذنب. يكفي أن يتذمر أحدهم من حصاة تسللت إلى حذائه، حتى تعود كلماته بصوت طفل يصرخ عند الرصيف. وتكفي امرأة أن تطلق "يووووه!" أمام بائع خضار، حتى يتردد الصوت أكثر حدّة من صبي يقارن حجم الكوسا براحة يده. حتى الأئمة لم يسلموا من صدى صوته، إذ كان يردد جزءًا من آية وسط التلاوة، فظنوه في البداية حافظًا يصحح لهم، ثم استقر رأيهم على محاولة إقناع والده– الذي لم يحضر إلى الجامع يومًا–بأن يحبس طفله عنده.

فؤاد ذاته علق على الأمر في أكثر من مناسبة

"حقًا؟ لم ألاحظ!"

ولم يخطر بباله إلا بعد أعوام طويلة أنه أقرب إلى مرآة من أي شيء آخر؛ لا يُرى فيه إلا انعكاس الآخرين، أما هو فكان يتوارى خلف صورهم، فينشغل الناس بانعكاس حياتهم عليه لا بملامحه هو.

نساء العمارة، من جهتهن، استهواهن تنصت فؤاد ومحاولاته الطفولية لإقحام نفسه في كل نقاش. بدأ بأجوبة قصيرة ومباشرة، ثم ما لبث أن مال إلى التفصيل كلما وجد فرصة للحديث. غالبًا كان يتكلم عن نفسه، وأكثر ما

تباهى به كان مهاراته في لعبة "الزراقيف" التي انتشرت بين الأطفال آنذاك. وقد حاولت النسوة أن يوجهن فضوله إلى ما حوله وإلى تفاصيل الشارع، فتفاعل معهن في البداية، لكنه سرعان ما ملّ. لم يكن السبب ضعف اهتمامه بالآخرين، بل لأنه اكتشف أن متعته الحقيقية لا تتأجج إلا عندما يحكي عن نفسه، لا عن غيره.

لم يتوقف فؤاد عن حضور أي مجلس، أو ترديد كلمات العابرين كببغاء، إلا أنه صار أقل كلامًا، وأقرب إلى برج مراقبة متنقل، برج مراقبة لا يتبع أي جهة، ولا يشكل أي تهديد وجودي إلا على ذاته، وكل هذا في غضون الأشهر الأولى فحسب. بدا فؤاد لكل من حوله بعدها أكثر من كتاب مفتوح، بل ربما اتضح لهم أنه فتى مضطرب، وكثير التقلبات، تثيره جثة حمامة وأغنية سافرة، وتضجره الجثة والأغنية ذاتهما في اليوم التالي، وبدا حديث والدته المشؤوم عنه معقولًا أكثر، إذ أكدت لهن أنه مريض نفسيًا كجده الذي انتحر قبل أعوام، وأنها وإن كانت تحبه، إلا أنها ترى فيه كل العلامات التي عرفتها في جده، مع التأكيد الدائم أنها تعني جده من جهة أبيه، فوالدها هي لم يكن ليقترف جرمًا كذاك، وأبعد ما يكون عن كل هذه العلل التي عرفتها في بيت زوجها.

ومع مرور الوقت خفتت محاولات النساء لصرف انتباه تهاني عن ابنها، كما يخفت أي موضوع يُستهلك وتفقده الألسن بريقه، حتى انعدمت تمامًا بعد أن أدركن، متأخرات، أن أمه قد تكون أدرى به منهن. ولهذا صار بعضهن يستعطفه، وإن لم يفهمن غالبًا ما يريد قوله حين يسترسل في حديثه، أو لم

يعرفن كيف يمكنهن تغيير مسار القدر، ولو قليلًا، ليهنأ هذا الطفل بحياة أقل اضطرابًا.

حاولت بعض النساء مرارًا التبرير لفؤاد، بل والدفاع عنه أحيانًا، بطريقة لم تعجب تهاني كثيرًا، إذ كن واعيات بطفولية طبعه، وطيش تصرفاته، وغياب الروادع الاجتماعية التي تنهاه عن دخول البيوت دون استئذان، ومد يده في موائد غيره دون دعوة، غير أن الأمر لم يبدُ لهن مختلفًا عمّا عايشنه مع أبناء هذه أو تلك، بل إن فؤاد أظهر لهن قدرة لافتة على التعلّم، وتغيّرات متجددة لم يعرفن معها كيف يفهمن طفلًا مثله.

محاولات النساء لصرف انتباه تهاني عن ابنها، وتغيير رأيها فيه، خفتت بطبيعة الحال، كما لأي موضوع يهترئ ويفقد جاذبيته كلما لاكته الأفواه، وانعدمت إثر إدراكهن المتأخر أن أمه قد تكون أدرى به منهن، ولهذا استعطفنه، وإن كن لم يفهمن غالبًا ما يريد قوله متى ما استرسل في الحديث، أو لم يعرفن تمامًا كيف بإمكانهن تغيير مسار القدر، ولو قليلًا، لينعم هذا الطفل بحياة أقل اضطرابًا.

الحقيقة أن طبيعة فؤاد، على علّاتها، وخبرة والدته، على زلّاتها، سهّلا كثيرًا من انسلالهما في جسد حارة العنبرود، حتى أن أحدًا لم ينتبه متى صار للحارة أعضاء جدد، ولا كيف أضحت تهاني بنت حسن الجماعي تحضر كل جلسة، وتنساب بسلاسة مع تيارات الأخبار، وتنقلات المجالس، ولا متى صار فؤاد يلعب أمام العمارة، ويحدث الأطفال عن أمجاده في حارته القديمة.

٨

سليم العليمي، على الجانب الآخر، لم يكن أكثر من حمل زائد حصل وأن فؤاد وأمه جاءا به. من غير المنصف القول بأنه كان رجلًا فظّ الطبع، لا تطاق معاشرته، فقد كان له "قبول" يميزه، كما قالت أم محيي الجزار، وهي عجوز ثرثارة، تعرفها النساء بفضولها ومشاكستها، وأهم من كل شيء بطبعها الانتقائي في كل شيء، إذ كانت قد رأته خارجًا من محل ابنها، فلم تتمالك نفسها عن مبادلته كلمتين، ثم تركته مبتسمة، وسط دهشة الجميع من ابتسامة لا تُرى عادة على وجهها.

سليم العليمي رجل له قبول بالفعل. للشعر الجعد الذي يحيط بصلعته الدائرية اللامعة، ولنظارته التي يرتديها في طريقه إلى العمل، وللكرش الخفيفة التي يضيق عليها بحزام بنطاله، دخلٌ في ذلك القبول. لكنه، أكثر من أي رجل سبقه في حارة العنبرود، لم يبدُ مهتمًا بأي شيء فيها. يراه المارة شاردًا يحملق في السماء أغلب الوقت. هذا إن خرج أصلًا من بيته حاملًا فراشه و"مدكاه" وشاله المبلل الذي غسل فيه قاته آنفًا، متجهًا إلى ركن في الجبل ليضع الحارة كلها تحت أنظاره، وأحيانًا يصعد إلى فوق أعمدة بنايات قيد الإنشاء.

أما إذا صادف أن حضر مجلسًا من مجالس الرجال، فغالبًا بدافع نزوات غير

منتظمة، وغالبًا في الأعراس والولائم، فلم يكن يُسمع منه سوى تعليقات متفرقة: إما انتقادات سياسية لاذعة، أو مديح عارم في حق أحد معارفه من حيواته السابقة.

بخلاف ذلك، لم يكن يعرف عن سليم سوى أنه يتردد على البقالات بنفسه بدلًا من إرسال ابنه، ويتنقل بين عمل وآخر في المدينة، وتغلب فترات بطالته على فترات عمله. ورجال العنبرود، وإن كانوا مغرمين بكل حديث وكل سبق أخباري يمكنهم لوكه لأسابيع، ورغم تعنتهم الشديد عند التعامل مع الغرباء، خصوصًا قليلي الكلام، فقد رأوا في سليم العليمي فراغًا لا يُملأ، ووجودًا قابلًا للنسيان. حتى أنهم كلما نظروا إليه، إثر استراقه النظر إلى نوافذ الجيران، لم يشعروا تجاهه بشيء، ولم تتبادر إلى أذهانهم فكرة واحدة بإمكانهم إعادة صهرها وطرقها ومدها في مجلس قادم.

أما تهاني، التي كانت قد لاحظت هذا الفراغ الذي يملأ قلوب سكان الحارة كلما رأوه، فكانت تؤمن أن رجلًا مثله لا يصلح للنسيان، أو ربما لا يستحقه. شعرت أن من واجبها، بطريقة أو بأخرى، أن تجعله معروفًا بينهم. فكانت تروي لهم كل قصة- لا تمسها هي بالطبع- تراها صالحة لحديث الناس، مثل: حادثة بيت لطفي، وحادثة المعمري، وحادثة شارع الأربعين... وهي حوادث كانت سببًا في كثرة تنقلاتهم، وتنتهي غالبًا بعراك وتدخل للشرطة، وتتضمن عادة إخلالًا- غير متعمد كما يؤكد سليم- بقواعد الأدب العام في التعامل مع النساء: نظرة، همسة، أو لمسة عابرة.

لم تفلح أي من محاولات تهاني، وبدا لها أن كلماتها لا تصل أبعد من ذاتها، فالقصص تذبل مع نهايات المجالس، وزوجها كان أقرب للنسيان مما ظنت، وأكبر فراغًا مما يمكن لقصصها أن تملأ.

❊ ❊ ❊

٩

بدايات فؤاد في المدرسة لم تكن بسلاسة بداياته في الحارة، رغم ضرورة الاعتراف بأن هذه السلاسة نسبية في نهاية الأمر، وقد يختلف منظور كل من عاشر الأحداث حيال هذه التفاصيل. فؤاد، في نظر والدته، مر بأسوأ السيناريوهات في يومه الأول، وتحديدًا بذاك الذي لم تكن قادرة على توقعه أو الاحتياط منه. أما في نظر والده فقد كان بإمكان الأمور أن تكون أسوأ. صحيح أنه لم يعلق على الأمر صراحة بعد كلماته الأولى تلك، ولكن أحدهم سمعه يحكي عن عراك ابنه الأول ضاحكًا، وأكد آخرون أنه وإن لم يكن يضحك فعلًا فإنه بدا مسرورًا، ولو إلى حد ما، بما حصل يومها.

ردة فعل سليم العليمي تجاه معاناة ابنه ليست بالمستغربة، إذا ما نُظر إلى الموضوع في سياق مختلف، وبوجهة نظر سليم ذاته الذي اكتفى بأن ترك مسائل تربية ابنه وتوجيهه في يد والدته، ولم يحاول يومًا أن يتدخل، مهما بلغ مدى اعتراضه، ومهما تلوى مشمئزًا من أساليبها التي بدت طفولية أحيانًا، ومشبعة بالجبن والأنوثة أغلب الأحيان. لم يتدخل سليم إطلاقًا، وهو وإن لم يشرح لزوجته مباشرة، ولو لمرة واحدة، سبب عزوفه هذا عما يتعلق بتفاصيل ابنه اليومية، فإنه باح بسره ليلة وهو يهذي في منامه، إذ كان قد حُرم من تناول القات يومها، وبدا لزوجته مخبولًا، كما لو أن شيئًا ما مُزج مع تبغه

أو في الهواء الذي ظل يزفره ثقيلًا بطيئًا.

لم يستغرق الأمر طويلًا قبل أن يبدأ سليم العليمي بالبوح أمام زوجته الضجرة، التي كانت تتمنى لو ينام ويخلصها من ثرثرته المبهمة. ليلتها أقسم فوق رفات والده أنه لن يرتبط بطفل له، إلا بقدر ما يورّثه اسمه وبعض ممتلكات العائلة التي حرص على تذكير ابنه بالمطالبة بها متى ما بلغ سن الرشد. يؤمن العليمي ويؤكد في هذيانه أن كل ارتباط بين الآباء والأبناء محكوم بالخذلان: الأطفال الذين يتعلقون بآبائهم يقتلهم الحزن والندم، والآباء الذين يعلّقون قلوبهم بأبنائهم يعيشون الخيبة ذاتها، ثم يورثونها بعد موتهم.

هذه القناعة التي تشكلت لدى سليم العليمي، وإن لم يصرح بها يومًا، لا تنبع من حب تجاه ابنه، ولا تنبئ فعلًا عن رجل ذو قلب مرهف، بقدر تمثيلها لحيادية باردة يعيش فيها في هذا العالم، ويتمنى بسببها، ومن خلالها، أن يقتصر وجوده على التفاصيل الضيقة التي تعنيه. بالكاد يؤثر على تداخل الأقدار حوله، أو ما نسميه الحياة، وبالكاد يسمح للحياة أن تؤثر عليه. موت والده عزز هذا الاعتقاد لا أكثر، ولو لم يكن، لوجد أعذارًا أخرى تسمح له بمراقبة ابنه من بعيد. حتى حين كانت تهاني تحرم ابنها من أتفه تفاصيل الطفولة، كان أقصى ما يبلغه استنفار داخلي لا يترجم إلى فعل.

تعامل تهاني بنت حسن الجماعي مع صغيرها كان مطرح تساؤل، لا من قبل زوجها فحسب، بل من كل من عرف الخوف الشديد الذي ينضح من عينيها

كلما رأته، حتى وهي تعدد زلاته أمام الجارات. تواجد فؤاد بحد ذاته يعني حالة استنفار تستوجب الحيطة والحذر، لا لمشاكسة الولد، وانجرافه وراء كل همسة ونسمة حياة فحسب، بل لأسباب لها وجاهتها؛ إذا ما نُظر للأمر بعيني تهاني، حتى وإن بدا لغيرها أن تلك الوجاهة المحتملة لا تستدعي كل ذاك القدر من الخوف.

ترسل بنت حسن الجماعي ابنها إلى المدرسة مكفنًا بملابسه، وتقول له في كل مرة:

"لو تركتك لخرجت إلى المدرسة عاريًا يا رِجْل الكلب!"

وتضيف بعد أن تتم مهمة تكفينه:

"أتحدّى أن يكون لأيٍّ من رفاقك أمّ ترعاه وتحافظ عليه مثلما أفعل معك. صحتك عندي أهم من الدنيا وما فيها، أهم منك أنت ومن أبيك معًا!"

ولأن تلك المدرسة تشترط وحدة الزي والمظهر الخارجي، خلافًا لما كان عليه الوضع في مدرسته السابقة، لجأت تهاني إلى حشو أي فراغ محتمل بين الزي المدرسي الأخضر القاتم وجسد فؤاد الهزيل بقطع من القماش أو الصوف، تحول بينه وبين أي ريح شاردة أو برودة تنثرها على الأطفال صباحات الشتاء.

كان فؤاد يبدو من بعيد كحبة بطاطا زاحفة، حتى إذا اقترب الناظر أدرك أن ما يراه طفل يحمل فوق جسده النحيل قرابة وزنه من الكتب والملابس، وقد

تأخر عن المدرسة ليس إلا، وتغمره سرابات الطريق، وابتسامة الطفل الصاعد للتلال والمتعثر في الحفر، ومنشغلًا بتعرجات الطريق، خصوصًا حين يكون الطريق وعرًا، كما هو حال الطرق المؤدية إلى جميع مدارس حارة العنبرود وما جاورها، بحكم الجغرافيا بالطبع، وتحت وطأة وعود الحكومة، وتعود الناس.

خوف تهاني الوجيه هذا يعود بجذوره إلى ألم لا يلاحظه من يرى الخوف في عينيها. ثرثرة فؤاد لم تخل من الكثير من الحقيقة على أي حال، والجارات اللاتي أثارتهن قصة موت الإخوة حاولن أن يتمالكن أنفسهن عن السؤال، على غير عادتهن. فلم تكن دوافع الفضول، هذه المرة، أقوى من مشاعر الأمومة أو أقوى من العقلانية التي يفرضها احترام الموت. صحيح أن تهاني كانت حذرة في تقربها من نساء حارة العنبرود، ولكنها سرعان ما سكبت جل ما عندها حين استشعرت ذاك الاحترام أو تلك المشاعر، وهي تغمر مجالسهن، متى ما حضرت على الأقل.

تبيّن لاحقًا أن الإخوة الذين ذكرهم فؤاد ماتوا جميعًا فعلًا، لا بالكيفية المبهمة التي صاغها الصبي، بل كانوا قد ماتوا في مراحل مختلفة من الحمل والولادة. سبعة في المجموع. من وُلد منهم حمل قلبًا ضعيفًا لم يقدر على ثقل الهواء وضغط الحياة فتهاوى سريعًا، وسقط الآخرون واحدًا تلو الآخر من رحمها، وكلما ظنت جسدها قادرًا على التشبث بالطفل التالي خذلها وهنها والأقدار التي حاولت ألا تسخط عليها.

كانت ولادة فؤاد حدثًا استثنائيًا بحكم هذه الظروف، لكنها لم تعنِ الكثير، إذ كان ملاك الموت يطوف فوق مهده كما تخيلته والدته. لذلك ما لبثت أن فطمته سريعًا، وعادت تجرب حظها، لعل هذا الطفل، الذي لم تسمّه حتى بعد فطامه، يكسر النحس أخيرًا، ويخطّ في جسدها تفاصيل الأمومة التي افتقدتها.

إلا أن ما خشيته وقع، ثلاثة من وفيات الأطفال السبعة جاءت بعد ولادة فؤاد، وجميعها قبل أن تكمل الشهر السابع في رحمها، فتهيأ لها أنها نبوءة حققت ذاتها.

أما الطفل الذي بقي بلا اسم فبدا كما لو أن ملاك الموت تناساه كما تناسته والدته. اهتزت تهاني من أعماقها بعد الوفاة الأخيرة، وسمت ولدها بفؤادها، وربطت في لحظتها، دون أن تعلن عن نواياها بالضرورة، بين وجودها ووجود ذاك الطفل، ورتبت شتاتها كله لتضمن بقاءها في صورة فؤاد الذي أكد لها رحمها أنه لن يتكرر.

ولهذا، حين تكفن تهاني ابنها صباح كل يوم مدرسي، فإنها تكفن ذاتها هي كذلك، وتتشبث بالحياة التي وهبتها فرصة وحيدة، ليست بالمثالية، خصوصًا حين تتكرر ابتسامتها البلهاء وضجرها المعتاد، ولكنها كانت فرصة، وما كانت تهاني لتردها.

❊ ❊ ❊

١٠

يعي سليم العليمي كل ذلك بالطبع، فقد خاض التجربة بجانبها، وإن لم تدفعه الحماسة التي دفعتها إلى تلك المحاولات الكثيرة. ما لم يَرُق له في أيٍّ من ذلك هو انفعاليّتها التي تحكم جميع تصرّفاتها، واستماتتها في حرمان الطفل من أبسط التجارب. ولكي يؤكّد لنفسه فكرة ما غامضة في دواخله، قرّر يومًا أن يرتدي الأوزان نفسها التي ابتُلي بها ابنه، فحشا ملابسه بكل قطعة ممكنة، وغطّى عنقه بشاله، ورأسه بقبعة صوفية شبيهة بتلك التي يضعها ابنه، وانطلق إلى عمله.

في بادئ الأمر، شعر سليم أن زوجته قد تكون محقّة بعض الشيء؛ فصباحات الشتاء في صنعاء قادرة على وخز العظام، وإفقاد أعتى الرجال وأنشط الصبية القدرة على الإحساس بآذانهم وأطراف أصابعهم. أما الوضع في حارة العنبرود فأشدّ، حيث الجبال تقف سدًّا منيعًا أمام هبّات الريح، فيتراكم الهواء فوق بعضه، ويظلّ البرد حبيس الحارة طيلة النهار. اعتاد الشُّيّاب هناك أن يقولوا: "أتى قارس"، وأن يرووا حكايات عن شتاءات طويلة مرّت على الحارة، بل وعن أعوام استثنائية عرفوا فيها الثلوج.

أما علي النجار، ابن محمد جميل النجار وابن خالة صالح القدسي، وهم عائلة تعمل في الحدادة، ويعتمد عليهم أبناء الحارة في عمليات البناء والتمدد

الدائمة، فيشرع- في كل مرة يستشعر فيها موجة الصقيع الأولى- بالتردد على كل المجالس والعزائم مرتديًا سترة صوفية يعرفه الجميع بها، وينتظر فرصة مواتية ليدخل في سير الحوار، ويحكي للجميع ما يدور في ذهنه، مقلبًا عينيه بين شفاه الرجال، بسترته التي لا ينزعها، حتى إن ارتفعت حرارة الغرفة بتزاحم الأنفاس الممزوجة بالقات والدخان.

ولأن الجميع اعتادوا الأمر ذاته من العجوز المتقاعد، عامًا بعد عام، فقد صاروا، من جهة، يضبطون جداولهم على ملابس علي النجار، فيعرفون أن الشتاء قد حل حين يرتدي سترته الصوفية، ويتشاءم الأطفال لأن أهاليهم سيرغمونهم على ارتداء المعاطف، كما يتذمر أولئك الذين لا يمتلكون ما يقيهم البرد. ومن جهة أخرى، وتجنبًا لخروج علي النجار مطأطئ الرأس، حين لا يجد فرصة سانحة للحديث، في فترات اشتداد الجدالات السياسية، فإن أحدًا ما- أحد الوافدين الجدد إلى الحارة أحيانًا، وغالبًا شاب تغمره الشفقة- يبادر ويسأله السؤال ذاته الذي يُطرح كل عام:

"ما شاء الله يا عم علي! هذا الصوف شكله أصلي، من أين اشتريته؟"

فيتنهد علي النجار، ويبدّل جلسته، كأنما يعيد ترتيب أعضائه، ثم يملأ رئتَيه بالهواء الممزوج بالدخان، ويُخرج زفرة طويلة، بينما تتوزع نظراته بين جانبي سترته والعيون المشدودة إليه، كما يحدث كل عام:

"حكاية طويلة يا ابني، لكن ما دمت قد سألت، ولأن لك عينًا تميز

الحسن والقبيح، فسأجيبك. هذا الصوف يا ابني من تراث بيت النجار، تناقلناه أبًا عن جد. جدي الأكبر، محيي النجار، كان قد صنعه له صديق عزيز بيده بعد فترة وجيزة من وصوله إلى الحارة وانضمامه إلى الشيخ المؤسس. وصولنا، نحن بيت النجار، إلى هنا كان في فصل الشتاء، وقد غيرنا بعدها كل شيء في وجودنا، وتبدلت أحوالنا وطباعنا كما تتبدل جلود "الحِنْشان". حتى جدي محيي النجار، الذي كان نجارًا بالفعل، ومنه يأتي لقبنا، قرر في لحظة ما أن يترك النجارة ويتعلم أي مهنة أخرى. هذا الصوف يا ابني، وأنت فتى نبيه، وأنا أعرف كيف أميز النباهة في أعين الرجال، هذا الصوف هو الثابت الوحيد لنا، ولأننا نتبدل ويضربنا شتاء وراء آخر، يختلف الواحد عن الآخر بالتوقيت والطباع، ويشتركون كلهم في وخز العظام، ولأننا ننسلخ عن قيمنا، ونرى انسلاخ أبناءنا عن طباع آبائهم وأجدادهم، فإن هذا الصوف يذكرنا دائمًا بمن نكون.

أمّا حين يسأله أحدهم: لماذا لم يُعطِ سترته لأيٍّ من أبنائه بعد، على الرغم من أنهم تزوّجوا وأنجبوا له أحفادًا كُثر؟ كان يضع يده على رأسه، ويؤكّد متحسرًا على انقلاب حال أولاده، وكم أنهم لا يستحقون التمسك بتراث كهذا. ويضيف أنّه لو كان الأمر بيده لتزوّج الآن فتاة يافعة تنجب له طفلًا آخر، فيربي كليهما، ويوجه حياتهما إلى الصواب. لكنّه، في النهاية، يعترف بأن الأمر لم يعد بيده.

وحين يفرغ من ردّه وقد خاض في أسئلة هذا وتعجب ذاك، يبدأ في مسح الصوف بكفّيه، ويقرأ المعوّذات علنًا، غير عابئ بمن يستهجن فعله، ويلقي نظرات شزراء على كل من تفرّ من شفتيه ابتسامة ولو خفيّة.

فكر سليم العليمي في كم كانت استراتيجية حشو الملابس مبهرة وفعالة، وسليم، الذي اعتاد التذمر، شعر للمرة الأولى منذ زمن بتفهم تام لتصرفات زوجته، وبتعاطف غريب مع علي النجار. وجد أنه لا بد من إبداء امتنانه، فخرج مسرعًا إلى عربية تبيع الموز أمام موقع عمله، عادة ما يمر بها متعجلًا، ووجد فيها ما ظنه قد يسعد تهاني.

ما لم يحسب سليم العليمي حسابه هو أن انتصاف النهار كان له مفعول السحر، شتاءات صنعاء مشمسة عادة، جافة، وبالكاد تتلبد غيومها، أو تتراكم. والهواء المشحون بعرق الناس، وحركتهم التي تبلغ ذروتها قبل الظهيرة بقليل، يستقبل شمسًا حارقة توهم السياح بالصيف الذي عرفوه في أوروبا.

سكان صنعاء عمومًا، لا سليم فحسب، لم يبدوا واعيين يومًا بطبيعة هذا الشتاء المتقلب، فالشمس حضور اعتيادي يكاد يغيب عن وجدان الناس وجودها أساسًا، كالهواء والجاذبية ومسلمات الطبيعة، ولولا الليالي الحالكة لنسوها تمامًا، ولكنها حاضرة، ولو لفترات الظهيرة على الأقل، حيث تزدحم الأسواق، ويتعارك سائقو الباصات على الركاب في المحطات، ويسرع الرجال إلى منازلهم أو الأرصفة التي يفترشونها لتناول الغدا.، الشمس بهذا

شاهدة على ثبات أحوالهم طيلة العام، أو ربما أكثر من شاهدة بقليل، إذ هي من تنظم تحركات الناس، وتعصر من معاناتهم أرواحًا تخلق كل هذه الحركة، رغم أنف الشتاء.

بسبب هذه الشمس ذاتها، والحر الذي تصبب معه جسم سليم عرقًا- حتى كاد يقسم أنه لو عصر ملابسه لسقى عائلته ليوم كامل- فقد تغيرت ملامحه، وتبعثرت التجاعيد على وجهه المنهك، ولم يمنعه من خلع ثيابه إلا أنه أراد أن يحتمل ما يحتمله ابنه كل يوم، فعاد إلى البيت، ومشى عبر المرتفعات الوعرة إلى منتصف حارة العنبرود، إذ لم تكن الباصات قد امتدت إلى ذاك الجزء بعد، فكان يضطر إلى السير نصف ساعة تقريبًا ليصل إلى شارع الستين، أقرب شارع تمر منه الباصات.

وتذكر حينها، وهو يرى الأطفال المتقافزين حوله في منتصف الحارة، أن ابنه- مثلهم- كان يعود إلى المنزل وقد خلع نصف ثيابه، لترحب به تهاني بتوبيخ ووعيد بدورها، فاستشاط غضبًا من نفسه، وبدأ يخلع قميصه وينزع كل قطعة ضاق ذرعًا بها وهو يمشي ويتمتم بعض الكلمات المبهمة. حتى وصل إلى الحارة وليس عليه إلا ملابس داخلية، وفي يده كيس حشر فيه ثيابه، وفوقه الكثير من الموز الذي وزعه على الأطفال الذين توقفوا يتأملونه.

أما بقية أهل الحارة فلم يلحظوا وجوده أصلًا، وحين حاول الأطفال- خصوصًا أولئك الذين حصلوا منه على الموز كدليل- أن يقنعوا الناس بأن سليم العليمي قد جن وبدأ يتعرى في الشارع في وضح النهار، فإن أحدًا لم

يصدقهم، بل وأنّبتهم أمهاتهم على اختلاق حكايات يصعب تصديقها، فما هكذا تخلق الإشاعات، ولا هكذا يؤخذ الناس على محمل الجد. وبقي الأمر بعدها إشاعة فاشلة احتفظ بها هؤلاء الأطفال، إذ ربما يصارحون سليم ذاته بها ذات يوم.

❊ ❊ ❊

١١

لم تقتصر معاناة فؤاد في بدايات المدرسة على جانب الهوس الأمومي وتداعياته فحسب، خصوصًا حين نعرف أن بعض أطفال الجيران استسلموا أمام حاجتهم الملحة إلى سماع القصص، ونثروا كل ما يعرفونه عن أم فؤاد. الكثير من الأطفال لم تهمهم كل تلك القصص أساسًا، ولكنها وصلت إلى آذانهم على أي حال، ولم يعرف إلا القلة ما بإمكانهم أن يفعلوه بها، كأولئك الذين بدأوا ينادونه بـ "يا فؤادي".

هذا التباين في مواقف الأطفال يأتي لتباين خلفياتهم بطبيعة الحال، فالمدرسة الابتدائية الوحيدة في الأرجاء تتوسط المرتفع الصخري ما بين حارة العنبرود وثلاث حارات أخرى مجاورة. وهو ما حقق تنوعًا وضع أبناء العنبرود في موضع أقلية، ومَثَّل واجهة رئيسية لاختلاط سكان الحارة بغيرهم، وتقديمهم للعالم الصغير حولهم، حتى وإن كانت هذه الواجهة على شبه صخرة عملاقة، تترعرع كلاب المزارعين قربها، وتكثر ما بين البيوت الشعبية المتفرقة حولها مزارع القات، والقليل من التين الشوكي الذي يجهز عليه الأطفال في مواسمه، وإن لم يكن القات أوفر حظًا في هذا الجانب.

معاناة فؤاد أتت من أنه- وبخلاف حاله بين أبناء حارة العنبرود- كان من السهل على أطفال الحارات الأخرى أن يلحظوا غرابة طباعة وفرادة

تصرفاته. فبعد أن يصل متأخرًا ثلاثة أيام في الأسبوع تقريبًا، وبعد أن يكون قد حصل على عقابه المعتاد من المدير الذي يقف بنفسه أمام باب المدرسة، موزعًا لسعات عصاه على أمثال فؤاد. وبعد أن يدخل الفصل ينتظر فؤاد خمس دقائق فقط ثم يرفع يده ويشير إلى نقطة لم يفهمها، ويطلب من المعلم، أيًا كان، إعادة الدرس كاملًا، من بدايته.

تصرفه هذا كان يلاقى موجات ضحك في البداية، بل وعدّه بعض المتمردين حركة شجاعة، وقاموا بالإشادة به، بل وبتقليده. ولأن النكات تُضحك في المرة الأولى فقط، سرعان ما ضجر الجميع من اليد المرفوعة في كل درس، والسؤال المتكرر بصياغات لا تحصى. حتى المعلمون الذين حاولوا أن يتماشوا معه قدر المستطاع وجدوا أنفسهم يتجاهلونه، أو يرفضون طلبه دون تردد، ودون أن يكلفوا أنفسهم النظر في عينيه، خصوصًا أنهم كانوا أقدر من الأطفال على تمييز غرابته، إذ رأوا ما رأت فيه والدته؛ فراغ عائم من غير غربال، كل شيء يمر خلاله، ولا رادع ذاتي يقوم تصرفاته.

اتضح- مثلًا- أن فؤاد كان يفضل التبول على أسوار المدرسة وداخل ساحتها، رغم تواجد مرافق لأفعال كهذه. صحيح أنه لا يمكن وصفها بالحمامات بالضرورة، إلا أنها كانت تفي بالغرض، وتوفر قدرًا معقولًا من الخصوصية، خصوصًا في حالة فؤاد الذي لم يتردد يومًا في رش كل من يقترب منه برذاذ بوله، أو التهديد بذلك ويده تتجهز لإنزال بنطاله.

هذه الغرابة في التصرفات كانت تدفع زملاءه إلى التجمع حوله في كل مناسبة،

ومحاولة استنزاف أكثر ما يقدرون عليه من غرابته، فيسأل أحدهم عن معنى الشخبطات التي تملأ الصفحة الأخيرة من دفتره، ويحاول آخر أن يذكره بالنكتة التي أضحك الفصل بسببها قبل ساعات. يتبادلون النظرات والمواقع وهم يحيطون به، وكأنهم في سباق لمعرفة ما يخبئه هذا الجرف المظلم الذي يجلس أمامهم.

فؤاد، الذي أعجبه كل هذا الاهتمام لم يتوان عن الانجراف مع أوهام الشهرة، خصوصًا بعد أن فقد اهتمامه بمجالس نساء العمارة، ووجد نفسه يتلذذ بذاته أكثر وأكثر، حتى إذا ما قال له أحدهم: "الله ما أحسنك يا فؤاد!" أجاب وهو يفرد عضلاته- بالمعنى الحرفي للكلمة- أمام الجميع: "أعرف! أعرف!"

لم يصل تهاني، ولا سليم بطبيعة الحال، أي من هذه الأحداث في الأشهر الأولى. كل ما كانا يعرفانه هو أن ابنهم يعود من المدرسة في أيام معينة، لا يبدو أن بينها أي روابط، وهو مدثر بالتراب، من رأسه حتى أخمص قدميه. وأحيانًا يفقد زر قميص، وأحيانًا تظهر آثار باطن حذاء على ظهره، أو يبتسم وتنكشف طبقة من التراب المتراكم على أسنانه. فتجن تهاني بنت حسن الجماعي، وتسمع الجارات صراخها ألمًا على ابنها الذي وجد نفسه تحت رحمة قانون الغاب مذ أتى إلى هذه الحارة. تبدأ بلعن اليوم الذي عرفت فيه زوجها، واليوم الذي أجبرهم على الانتقال إلى هذا الجحيم، وتنتهي بأن تذرف دمعتين وهي تحاول أن تتمالك أنفاسها، إذ ترتعش كلما بكت كما يفعل الأطفال، وتشغل نفسها بأن تمسح وجه ابنها بأطراف ثوبها، وتنفض

عن ملابسه التراب.

اعتاد فؤاد التمعن في ملامح وجهها المحمر كلما نظرت إليه، متعجبًا من هذه القدرة الهائلة على الاستمرارية؛ فأي بشري آخر كان ليتهالك بحلول هذه اللحظة، مستنزفًا كل ما يمكن للمرء تخزينه من غضب. بدت والدته لانهائية في هذا الجانب، وكأنها تحشي وجباتها كلها- خلسة ربما- بكل ذكرى مؤلمة، وكل سبب ممكن للغضب، ولو كان بمقدورها لنقشت على جلدها كل هذا القهر، وكأنها تحاول مقاومة النسيان بأي طريقة- كما تبادر إلى ذهن فؤاد بعد سنين، ذلك أنه كان كثير التفكير في تفاصيل ماضيه- إذ ربما تخسر نفسها مع كل ألم تتركه وراءها، وكل ذكرى لا تسعها انفعالاتها.

ما لم تدركه أم فؤاد، وما لم يكلف فؤاد نفسه عناء شرحه يومًا، هو أن حوادث العراك، واحتشاد العصابات القزمة حوله، اقتصرت على الأسابيع الأولى، بل وربما الأيام الأولى فحسب. صحيح أنه كان لا بد على زملائه أن يعلموه قواعد اللعبة الجديدة، وأين يقع في معادلة القوى في تلك الفترة، وهو واقع لم يعترض عليه فؤاد يومًا، إلا أن العنف كان قد تراجع بسرعة بعدها، ووجد فؤاد نفسه محاطًا بجماعة ما أينما ذهب، يختلف أفرادها واهتماماتهم، ويتفقون جميعًا على التهافت على قصصه الغريبة، وأفعاله التي لم تفشل يومًا في إدهاشهم.

لم يستغرق الأمر طويلًا ليجد فؤاد نفسه يخلع قميصه المدرسي، ويلعب الكرة في إحدى الملاعب الكثيرة التي تحيط بالمدرسة. أغلبها عبارة عن

أراض ترابية مسطحة اتفق طلاب المدرسة على تحويلها لملاعب بعد الظهيرة، واتفق المعلمون على ملاحقتهم وطردهم منها متى ما رأوا تجمعًا في أحدها.

الحقيقة أن اتفاق المعلمين الضمني ذاك لا يعدو كونه إذعانًا لتهديدات وصلتهم مرارًا، فأصحاب تلك الأراضي كانوا قد اشتكوا وهددوا بملاحقة الأطفال، أو إطلاق كلابهم عليهم، إذا ما حصل ورأوهم يومًا يخربون أرضهم بلعبة سخيفة كتلك. ملاك الأراضي هؤلاء رجال تصادف أنهم- جميعهم- ينتمون إلى حارة العنبرود، وبعضهم كان من أهدى الأرض للدولة لتبني عليها المدرسة القائمة الآن، وآخرون كانوا من الداعمين السخيين لبعض الأساتذة، في ما يعرفه الطلاب بـ "الاتفاقية السرية بين مؤسسات الدولة وقوى الخير في حارة العنبرود"، أو بعبارة أخرى: "كراتين المارلبورو، وعلّاقيات القات، والنجاح في الاختبارات، عن طريق شراء الولاءات."

كما يؤكد بعض ملاك الأراضي، ضاحكين متى ما اجتمعوا في مجلس ما، يحولون حديثه دائمًا لأوضاع المدرسة، ويؤكد أحدهم دائمًا:

"كل هذا الخير فقط لأبناء حارة العنبرود، لا يهمنا رعاع الحارات الأخرى. كل هذا رد جميل لأبناء حارتنا، كلٌّ بقدر استطاعته، وعلى الله التوفيق."

ويقول آخر مواسيًا أحد أبناء جاره:

"لو كان الأمر بيدنا لفتحنا أرضنا كلها لكم فقط لتلعبوا فيها، فتلك

أرض تابعة لحارتنا، وحق الواحد منا فيها هو حق الجميع، ولكن كما تعلم يا بني، فلا يمكن أن نختار من نطرد، ولا يمكننا المجازفة بأن يحاول أحد أبناء الحارات الأخرى أن يبسط يده على أرضنا فجأة، أنت تفهمني، أليس كذلك؟"

تردد فؤاد على لعب الكرة على تلك الأراضي لم يكن وحده ما أوصله إلى تلك الحال، فقد كان من الجلي لفؤاد، منذ اليوم الأول، أن أبناء حارة العنبرود يشتركون مع غيرهم في هوسهم باللعبة، وخشونتهم الشديدة فيها. وفتى هزيل مثله- كانت والدته تحرمه من الخروج في الأحياء السابقة، إذ كانت كلها تطل على شارع عام- لم يكن يومًا قادرًا على أن يجاري أقرانه، لينتهي الأمر به دائما تحت قدم أحدهم، متمرغًا في التراب، ومبتسمًا مهما اختلفت الوضعيات أو تعددت السقطات ونتائج المباريات. كانت هذه الابتسامة، في خضم هذا الاندفاع الطفولي، ما دفعه للعودة في كل مرة، فلا صورة والدته مستشيطة الغضب تمنعه، ولا جروحه التي يخلفها محيط الملعب الشائك تؤثر عليه، ولا حتى شمس الظهيرة الحارقة التي كاد بسببها أن يفقد وعيه للحظة، وإن كانت هذه الحالة مرتبطة مباشرة بنسيانه المتكرر لوجبة الإفطار التي تصر عليها والدته.

حين يتذكر فؤاد كل هذا، اليوم، فإنه يعلق باقتضاب:

"كانت ألعن أيام، لو كنت عاقلًا لما انجرفت وراء كل شيء بتلك الطريقة."

وأما حين تكون نفسيته في الحضيض، فإنه يعلق بإيجاز، غالبًا وهو يحدث نفسه، وأحيانًا وهو يحدث زوجته:

"حتى أبسط الأشياء كان بمقدورها أن تكسبني أجنحة أحلق معها، تعرفين؟ كما في "ريد بول"! أتذكر حين أشار إليّ ابن أيمن العبدلي ذات يوم، نسيت اسمه الآن، تخيلي! أتذكر اسم والده وأنسى اسمه هو! على أي حال، حين أشار إليّ حينها، كنت أحاول أن أنزع الشوك عن باطن قدمي، كما تعلمين، فأنا كنت ألعب حافيًا، أرضية الملعب الناعمة لم تكن تتطلب أحذية، تمامًا كما لو أننا في الشاطئ، أتمنى لو أعود للعب على تربة كتلك، نادرًا ما تجدين تربة بنعومتها وصفائها اليوم، ولكن الحواف والمحيط كانا مليئين بالصخور المدببة والشجيرات الشوكية. كانت أرضية لعينة بحق، كأصحابها الملاعين. المهم! كنت أنزع الشوك عن باطن قدمي، وإذ بابن العبدلي يشير إلى أسنانه ويقول: حاول أن تبصق، ثمة حشرة عالقة بين أسنانك! وحين فعلت، فقد جلس بجانبي، لم أكن أتحدث إليه كثيرًا قبلها، ولم أره خارج المدرسة غالبًا، إذ كان يسكن في حارة أخرى، ولكن جلوسه بجانبي، وإن لم يقل شيئًا، أو على الأقل لا أتذكر أنه قال شيئًا لي باستثناء تعليقه على قرارات الحكم مرة أو اثنتين، حتى ذاك الموقف، على سذاجته إذا ما فكرت فيه الآن، كان قادرًا على إكسابي الأجنحة ذاتها كما لو كنت قد حصلت على كعكة

شوكولا أو ملابس العيد أو حتى لعبة جديدة."

أما حين يشتكي أحدهم- زوجته تحديدًا- من حضور المدرسة الدائم في أحاديثه، ونبرة الحنين الممزوجة بالسخط في حكاياته عن تلك الفترة فإنه كان يتلعثم ويرد:

"هذه هي الحكايات التي عندي، لا شيء آخر بإمكاني أن أحكيه عن تلك الفترة. كانت تلك المدرسة أول ما عرفته من العالم خارج حصار أمي المنيع. كنت داخل قوقعة، معزولًا عن العالم، وبالكاد أستطيع التنفس، لم أكن أعرف موديلات السيارات، ولا أسعار الماء والغاز، ولا معنى نصف كلمات الشارع. وجدتني فجأة ملقى لوحدي، أمام عالم لا أعرفه، وبجسد أشد هزالة مما يمكن لطفل تحمله، واضطررت لتعلم كل شيء من البداية. لم يكن الأمر سهلًا، كان الوضع أقرب إلى قانون الغاب بطريقة ما، كما أحبت أمي أن تصف الحياة في تلك الحارة."

❊ ❊ ❊

١٢

وجود فؤاد في الحارة- وبقاؤه فيها كأساس لتقبل المجتمع له- كان مرتهنًا بقدرة والديه على توفير الحد الأدنى من مستلزمات الحياة، وكان الإيجار أهمها، يتبعه الماء الذي يتناوب أهل العمارة على دفع تكاليف تعبئة خزانه أسبوعيًا. وهو وجود هش، وقد أدرك فؤاد مدى هشاشته سريعًا، وارتعب من احتمال خسارته أكثر من أي تجربة سابقة في الحارات الكثيرة التي تنقّل بينها. وجود يقوم على موارد غيره في توفير السكن، بحيث تكفي نائبة واحدة لتشرّد عائلات بأكملها، خصوصًا تلك العائلات المقطوعة الجذور، كما تحب تهاني أن تصف حال بيت العليمي.

زواج سليم بتهاني ذاته قد يكون سبب الهشاشة التي تنهش جسد العائلة، كما يدور في ذهن تهاني بين الفترة والأخرى، فالاثنان لم يكن مقدرًا لهما أن يتزوجا أصلًا. قدوم تهاني بنت حسن الجماعي إلى صنعاء كان لغرض علاجي بحت، فجسدها المتهالك إرث قديم عاشته كما عاشت وجودها ذاته، ولم تكن تتوقع أن يتقدم ابن الجيران لخطبتها بتلك السرعة، وهو الذي لم يرها غالبًا، وربما لم يعرف بهلاكها أصلًا.

أما والدتها التي رافقتها بين المستشفيات، وجرجرت يأسها مع قلب ابنتها المهترئ، فلم تتوان عن قبول طلب الزواج، فعقدت لابنتها، وعادت مسرعة

إلى قريتها، كأنها تخلصت من حمل أرهقها طويلًا، وربما توهّمت أن الأمر كله حلم، أو خشيت أن يكتشف الشاب الغريب أن البضاعة معطوبة فيحاول إعادتها.

لم يتبع العقد أي زفاف يُذكر، وظلّت وعود سليم العليمي، بل ووعود والدة تهاني، بأعراس ومهر، تدفع نحو مستقبل مجهول. وهكذا وجدت الشابة الضعيفة نفسها فجأة بين أحضان عائلة جديدة، تقاسمها القليل الذي امتلكوه، وفهمت بسرعة أن لا شيء فارهًا في هذه العلاقة، فلم لا تواصل النجاة يومًا بيوم، وترى ما سيحدث غدًا؟

انتقال تهاني إلى حارة العنبرود، رغم تشاؤمها منها، أعاد إليها ذكريات خالت نفسها قد دفنتها. الجبل الذي تستند إليه الحارة، وأجواء أهلها- على نزواتهم وعلاتهم- بدوا أقرب إلى جبل صبر، حيث التقطت النفس الأول، واكتسبت النفس الطويل، واستندت، كغيرها، إلى أرواح أسلافها المدسوسة تحت كل صخرة، وداخل كل مغارة، وبين كل شجرتين. أكثر من غيرها، كانت تهاني تدرك تمامًا أن غبار الجبل كان قد التصق بعينيها في أيامها الأولى، وأنها، مهما حاولت، ما كانت لترى العالم إلا به، ولا لتعرف العالم دونه.

كانت ابنة الجبل؛ وإن كان لها أن تختار انتماء آخر لما ترددت، غير أنّها بُعثت هناك في رماد عائلة متمزقة، وتحت ظل قصير لوالد ترك العائلة مسرعًا إلى بلاد بعيدة، وتوفي قبل أن يجمع الثروة التي وعد بها في كل رسائله، ولم يبق لها منه إلا غناء والدتها المستمر في غيابه لمطلع أغنية عبد الباسط عبسي:

"من قلة المصروف وكثرة الدين
بَكَّر مسافر فجر يوم الاثنين
وقت الوداع سلَّم وقال مُودَّع
لا تحزني شَشْقي سنة وشَرْجَع"

أما بعد وصول أخبار وفاته فإنها تركت البداية واكتفت بأن تعجن مع خبزها، وتمزج مع دخان الحطب وعرق النيران، أدمعها ونهاية الأغنية التي اكتفت بترديدها يتيمة البدايات كل صباح، غالبًا وأطفالها يشاهدونها من بعيد:

"وصيتي يابني تكون شهادة
لأن أبوك أحرمني السعادة
لكن مسامح قد يكون معذور
وربما هو الأخير مقبور"

نعم، لقد كانت ابنة الجبل، ولم يكن أحد ليسلبها انتماءها ذاك، ولا حتى غريب سارع إلى طلب يدها، وأغرقها بكثرة سرحانه. في حضن الجبل تعلمت تهاني كيف تحمل الريح صرخات الناس وتمضي، وألقت نفسها مرغمة في وحل العراكات اليائسة، وعصيّ المعلمات في المدارس. كانت تستيقظ في السادسة لتسكب على الجبل أحلامها الناقصة، وخطواتها المرتجفة، وتتقاسم معه خيوط الشمس، كما تقاسمت مع أشباهها البلاطات في صفوف المدارس، وسندوتشات الجبن والحلاوة، ومرارة الحصى على

الكفوف المتساقطة. وإذ رأت ابنها يرتمي بدوره في حضن جبل آخر، بعد أن خافت عليه المدينة وشوارعها، شعرت بالقليل من الأمان، وببوادر انتماء جديد، إذ رأت في عينيه ما عرفته عن نفسها: دماء ممتزجة بصخور الجبل، وشِعرًا يكتبه الأطفال على جباه العجائز، حتى وهن يحاولن تفريقهم باللعنات من خلف الشبابيك.

هذا الانتماء القديم كان امتدادًا للجبل وناسه، حتى إنها توهمت روح الشيخ المؤسس، واختلط عليها الأمر في اندفاع الذكريات، فتداخلت ذاكرتها مع ذاكرة الحارة، وتذكرت فجأة ما جال في خيالات الآخرين حولها، وكأنها كلها تجاربها هي: لعق أصابعها بعد "البفك" و"الطرزان"، انغماسها المريب في "عصيد" أم محمد، و"سلتة" أمها، و "كدم" المعسكر، وخبز الشيباني. تسللت- مع آخرين- حول ليالٍ خبأوا انكساراتهم خلف نجومها، متفادين الذكريات الملغمة. كانوا جميعًا الصدى الذي ينبع منه الليل الذي يغرق العالم، وكلما ظنوا أن الظلام داخلهم شارف على الانتهاء، وجدوا أنفسهم يتضاعفون في انعكاسات بعضهم، تمامًا كما اعتادوا أن ينزفوا ابتساماتهم الباهتة آخر كل يوم.

كانوا جميعهم أبناء الجبل، وإن لم يرغبوا في ذلك. تيقنت تهاني من هذا، واستشعرت أثره كما لم تفعل منذ زمن بعيد. انتبهت إلى تماهي الفوارق بين الناس في حضرة الانتماء الواحد: يتداولون ترددات القاف والجيم فيما بينهم، ويصبّرون أنفسهم بقرآن حسين عامر قبل الغروب، ويدندنون للآنسي صباح

كل عيد. ويلوكون الكلمات ذاتها، والحكايات ذاتها، كلهم، في الآن ذاته. تلك الرغبة في الانتماء إلى التفاصيل البسيطة كانت- دون أن تدرك- هوية الجبل، جبل صبر، أو جبل حارة العنبرود. يتعثر الناس في المطبات، ويذوبون سويًا في مجالس القات، لا يعرف أيهم أيّ الكلمات التي تحوم وسط أعمدة الدخان تخصه، ولا أي الأحلام هي التي خلقها في طفولته، ولا أي من الجالسين حوله سيحمل نعشه!

كل ذلك هو ما عنته حارة العنبرود لوافدة جديدة كتهاني. كانت كلما اصطدمت بالحياة الجديدة، عادت خائفة إلى التفاصيل البسيطة التي تخصها، تفاصيل تدحرجت من قمم الجبال لتسقط معها في وحل التجربة والخوف واليأس والألم. كانت تقيس العالم- كل العالم- بندوبها وأثر سقوطها، ثم تنهض، لأن الجبل ما يزال هناك، والشمس ستغرب على قمته في الغد أيضًا.

❊ ❊ ❊

١٣

سليم، على الجانب الآخر، لم يبدُ مهتمًا بأيّ من هذا. لم يغب عنه حضور الجبل، ولا النسيج البشري الذي يربط أجزاء الحارة ببعضها ويمتد بهم بعيدًا في الذاكرة، لكنه لم يكترث ببساطة. اكتفى برحلات متقطّعة إلى قمة الجبل، وبالتحديق الدائم من نافذة منزله أو إلى نوافذ الآخرين. عبر النوافذ، كما حفرت التجربة في ذهن أبي فؤاد، يمكن لأيّ شيء أن يتجلّى، ويمكن للعالم أن يستمرّ دون أن يكون لمن خلف النافذة اعتبار. كانت تلك التجربة، على سطحيتها، روحية بالنسبة لرجل كسليم العليمي، يشعر بانفصال تام عن العالم وهو يرى كل شيء تحته، ولا يدرك الآخرون وجوده، ويقعون- بطريقة أو بأخرى- تحت رحمة عينيه.

والدة سليم، كسواها، لم تكن لتفهم هذا. وحين لاحظت أن ابنها يحدق من النافذة كثيرًا مؤخرًا، ربطت خروج ودخول الجارة الجديدة وابنتها المريضة بإعجاب ابنها بها. فلم تنتظر كثيرًا، وخطبتها له، ودفعته إليها، فربما تتوقف تحت وطأة الإعجاب فضائحه المتكررة. وإن كان التصريح الرسمي، أمام باقي الجارات والمعارف، أن كل ما يسمعونه مجرد إشاعات تحاول أن تمس من رجل طاهر كابنها. فكيف لرجل، قليل الخروج، أن تبدر منه كل تلك التصرفات الشنيعة؟ ثم تؤكد كلامها بأن تجلب وعاء مملوء بالماء وتجبر الحاضرات على غسل أيديهن فيه، قبل أن تهرع إليه وتصبه فوقه غفلة، فربما

أصابته إحداهن بالعين، وتسببت في سيل الإشاعات القبيحة تلك.

سليم، الذي وجد امرأة هشة في حضنه فجأة، لم يستوعب تمامًا ما جرى. لم يحب تهاني مباشرة، كما تخيل أن يفعل متى رأى الفتاة التي ستجبره على الاستقرار، لكنه لم يكرهها كذلك. كانت لها سمرة أعجبته، وضعف أجبره على مجاراتها، وحملها على كفيه كلما تهاوت، حتى وإن شعر بأنه هو الأحق بأن تحمله بين عينيها. الزواج الجديد حرك فيه شيئًا لم يلاحظه في البداية، غير أنّ والدته استبشرت به، ورأت أنها أصابت حين وضعت طيرًا جريحًا بين يديه؛ فحتى الأطفال يكبحون نزواتهم متى وقع بين أيديهم طائر مكسور الجناح.

تحرك سليم هذا عنى أنه وجد عملًا، بسرعة لم تتوقعها والدته، كمحاسب بسيط في شركة استيراد متواضعة، وانتقل منفردًا بزوجته إلى الطرف الآخر من المدينة. أما تهاني التي استسلمت للواقع الجديد، فوجدت أن لزوجها ملامح مقبولة، وقلبًا دافئًا، وبدأت في التحسن تدريجيًا. عندها أيقنت والدة سليم أن ابنها كان قد أصيب بالعين فعلًا، وإذ عجزت عن استرجاع قائمة الحاضرات في آخر لقاء غُسلت فيه الأيدي، أيقنت بأن مفعول العين قد زال بانتقاله، فأصرت عليه ألا يزورها، وألا يفكر يومًا في العودة إلى جوارها، فلم يطرق سليم باب بيتها إلا بعد وفاتها، جامعًا بعض أغراضها ووعاء الماء الذي انسكب فوقه مرارًا.

الحقيقة هي أن سليم نفسه لم يكن قد استوعب تغيره ذاك بعد. مرت سنوات

والحياة تمضي دون أن يشعر بها، حتى ألف الحياة الجديدة. لم يستسغها، ولكنه استمر معها، كما لو كان ترسًا في آلة، يدور مع غيره، ولا يعرف لم يدور، ولا كيف يتوقف، ولكنه يدور، وهذه هي حياته الجديدة. إلا أن الحال لم يدم، لا لاختلال في عقلية سليم أو لإشكال في تصرفاته، بل للظروف التي كبدته الجرح تلو الآخر، وأخذت منه الابن تلو الآخر، وأجهزت على والديه دون أن يتمكن من التقاط أنفاسه بعد وفاة آخر جنين له، حتى أنه شعر بأن حياته كلها عزاء، يجره ملاك الموت معه من نائبة إلى أخرى، ويجبره على مشاهدة النهايات.

ليس الأمر وكأن سليم العليمي قد اتخذ قرارًا واعيًا بالانسحاب من العالم والانكفاء على ذاته أسوة بنفسه القديمة التي عرفها قبل الزواج، فهو يعي أن زوجته أضعف اليوم، إثر حمل متكرر، وقلب كثير الارتجاف، وموت يتربص بكل ما يحيطها. وهو يعي كذلك أنه لا يقدر على الاستمرار في حياة الانكفاء تلك، ولكن كل شيء حصل، وكان ما كان، ولم يكن له من يد في الأمر. واكتشفت تهاني- دون سابق إنذار- شبحًا ينسل متثاقلًا بجانبها على السرير، ويتمايل في خطواته بين الغرف. شبحًا شاردًا لا يقول الكثير، ولا ينظر في عينيها إلا حين يمارسان حبًا يصبح أكثر ندرة مع مرور الزمن. شبحًا لم تحسب حساب ماضيه، وانجرت وراءه وهو يقحمها معه في تلك المشاكل، إلى أن بلغ الأمر عراكًا كبيرًا تركا بعده بيتهما الأخير وانتقلا إلى حارة العنبرود.

لم يتوقف سليم عن العمل تمامًا، لكنه دخل في فترات متقطعة من التوظيف والطرد. لم يستمر في الشركة الواحد أكثر من ستة أشهر. وبعد انتقاله إلى حارة العنبرود، آثر التوجه إلى الأعمال المؤقتة: تارة يصطف مع عمال البناء على رصيف في صباح بارد، وتارة يتولى الإشراف على مكتبة للقرطاسية متى ما مرض صاحبها أو غاب في سفر، أو يتبسط الأرض في الأسواق ببضاعة يأخذها بالدين. ما يهم هو أن كل عمل مارسه منذ مجيئه إلى الحارة مرتبط أساسًا بالحاجة، وينتهي بانتهائها، ولم تكن تجدي توسلات تهاني ولا أمنياتها التي تذرفها عليه في الليل، لعله يهتز ويعود لعمله القديم.

تهاني التي لم تعتد على تقلبات زوجها، وجدت في انعزاله، وتقبله التام لكل ما يبدر منها، متنفسًا لكل ما راكمته السنوات في قلبها. بدا وكأن القدر مرتهن بنزوات زوجها، وأن بمقدورها أن تلومه على كل ما حصل، وما سيحصل: فهو من وقف وراء وحدتها، وهو من تسبب في جوعها وألمها، وهو المخطط الرئيس لإضعاف قلبها ورفع ضغط دمها، وهو من سيتسبب حتمًا في هلاكها، أو هلاك ابنه الذي تنتهي معه حياتها. وهي وإن تقبلت الانتقال المستمر، وفترات الفاقة وتراكم الديون بين الحين والآخر، فإنها لم ترد أن تترك حارة العنبرود بعد أن وجدت في انتمائها للجبل والناس مأوى أخيرًا، يكفيها أن تدفن فيه.

❊ ❊ ❊

١٤

الجارات اللاتي عرفنها، وتعلمن كيف يتقربن منها، بدأن في اقتراح حلول لمشاكلها، صدرت في أحيان كثيرة بعد استشارات مطولة مع أزواجهن. أصرت زوجة حسن العامري على الطلاق، فبناتها كلهن تطلقن من أزواج يشبهون سليم العليمي كثيرًا، ونصفهن وجدن أزواجًا بسرعة. أما حكيمة بنت مثنى، أم الملازم أحمد المذبحي، فقد رفضت مقترح الطلاق تمامًا، وأكدت لتهاني أن لا رجل سيأخذ امرأة ضعيفة مثلها، وإن فعل، فإنه لن يحتمل ابنها معها، لتعيد وتكرر:

"الأطفال مكانهم الأرض أو الطين والحجر، إذا لم تشغليهم بعمل يضيعون. جدي لفؤاد عملًا، بإمكانه أن يدرس في البيت، يسمونه دراسة منازل أو شيء من هذا القبيل، بنت أختي فعلت الشيء ذاته. ما يهم هو أن يتعلم فؤاد حرفة تنفعه، وتنفعك."

وتقول في مجالس أخرى لا تحضرها تهاني:

"زوجها مدلل، لو أن والدته "شَحَطَته" وعلمته معنى أن يشقى على لقمة عيشه لما وصل بزوجته وابنه إلى هذا الحال."

أما الغالبية من النساء فاقترحن عليها العمل، وتبادلن الأدوار في تعريفها بالفرص المتوفرة. مسعدة بنت سعيد الشاحذي، مجبّرة الحارة، وزوجة

العاقل، حاولت أن تعلمها أسس المهنة، ولكن تهاني أغمي عليها في اللحظة التي رأت أول ذراع مكسور أمامها، ورأت ابنها في الطفل الذي كسرت يده وهو يلعب الكرة، ولم تستحمل في المرات القادمة إلى منتصف عملية التجبير. حتى جلسات الحجامة، التي تمارسها مسعدة كمهنة جانبية، جلعت يدي تهاني ترتجفان بشدة، ولم تتجرأ على النظر إلى الدم بعينين باردتين كما تفعل مسعدة بنت سعيد الشاحذي.

وهكذا استمر الأمر مع المهن المتنوعة، من تنظيف المنازل رفقة منيرة الغازي، إلى رعاية المرضى والحوامل تحت إشراف زوجة ماجد الشعيبي، ومن تحضير الغداء للعزائم، إلى تنويعات الخياطة والتطريز والحرف اليدوية التي تبرع فيها النساء عادةً. لكن تهاني لم تبرع في أي شيء، ولم ترتح لأي مهنة. لم تكن سيئة تمامًا، إلا أنها لم تكن جيدة كذلك، ولم تسعفها يدها قليلة الدقة في التعامل مع الخيط والإبرة، ولا جسدها الضعيف في الأعمال الشاقة، خصوصًا في المطابخ المكتومة والضيقة. اقتربت النساء من اليأس بعد كل هذا الصراع الطويل، وفكرن أنه ربما من الأسهل لو تصدقن عليها من مدخولهن الشهري، وقد كدن يفعلنها، لولا أن إحداهن اقترحت، سرًا، تطريز الدروع الذي تعمل فيه مع قلة من نساء الحارة.

اتضح لتهاني لاحقًا أن جميلة بنت عارف، زوجة محمد حمادي- الذي شاع عنه السُّكْر والبطالة، ولم يكن مما يحيط به من أحاديث سوى زجاجات البيرة التي يخلفها أينما حل في لياليه- بدأت تعمل في تطريز الدروع لصالح امرأة

تقطن في حارة مجاورة، هي بدورها تعمل لصالح تاجر يملك محال في أسواق صنعاء المختلفة.

كان المبدأ بسيطًا للغاية: تتوجه النساء، من حارات مجاورة عديدة، قريبة وبعيدة، إلى منزل الموزعة شيماء العمري، وهي مطلقة تقطن مع والدتها، وترفض الزواج على حساب خسارة أطفالها. تمثل شيماء حلقة الربط بين التاجر والعاملات، وتتكفل بتوصيل المنتجات الجاهزة، وإحضار الأقمشة المطلوبة، وتتولى مسؤولية توزيع المهام، وحتى تقسيم الدخل. كل ما يهم التجار، ويهمها هي، هو أن تلتزم العاملات بأقل قدر من إتقان العمل، ويتعهدن بدفع تكاليف أي قماش يحرقنه.

النقطة الأخيرة تحديدًا كانت ما أثار قلق تهاني بنت حسن الجماعي، وكادت تدفعها إلى الانسحاب من بيت شيماء العمري دون أن تتم أي اتفاق. ذلك أن بساطة العمل، الذي لا يعدو كونه محاولة رص الفصوص الكريستالية على نقوش القماش، تنطوي على مخاطرة تتمثل في رقة القماش وقابليته الشديدة للاحتراق، خصوصًا أن الفصوص لا تلتصق بالقماش دون ضغط وحرارة المكواة. لكن لم تجد تهاني ما تخسره تحت وطأة حاجتها، وأغرتها أكثر طبيعة الدفع، ومرونة العمل.

صحيح أن تهاني أخذت بعض الأقمشة والفصوص معها بالفعل، ولكنها خبأتها في خزانتها فور عودتها إلى المنزل، ولم تعد لتمسهم إلا بعد أسبوع، فضلت خلاله زيارة العاملات اللاتي تعرفت على هوياتهن عن طريق جميلة

بنت عارف، فقد كن يفضلن إبقاء الأمر سرًا. راقبت تهاني كل ما يمكن مراقبته، وتعلمت كل ما يمكن تعلمه لامرأة تكتفي بالمشاهدة. تعلمت، مثلًا، بأن جميلة ستحصل على عمولة عند تسليمها للدفعة الأولى من الدروع، ذلك أن العاملات قليلات، خصوصًا في حارة العنبرود، واحتياج التجار متزايد، وهو ما يعني بالضرورة ارتفاع الأجر، ووفرة العمولات. أما الأسئلة التي طرحتها تهاني ففاقت قدرة النساء على التحمل، ولكنهن أجبن على أي حال، ورأين في يأسها وخوفها أنفسهن في البداية، ولم ترغب أي منهن في أن ترى انكسار ذاك الكيان الهش بسببها.

الحقيقة هي أن تفاصيل العمل الجديد أثارت فضول تهاني، إذ كانت عملية رص الفصوص لتتماشى مع النقوش والخطوط المتفرعة على القماش بسيطة نسبيًا، أو على الأقل، أبسط مما خالتها، فلم يكن قد تبادر إلى ذهنها يومًا كيف تُطرز الدروع. تبادر لذهنها كذلك أن تستُّر جميلة وصديقاتها على هذا العمل لا علاقة له بعزلة الحارة وعداء سكانها لغيرهم، بل ربما يكون الدافع جشع خفي، فلو انضمت إليهن كل النساء لما بقي للواحدة منهن عمل كاف، وسينخفض الأجر بدوره، ولكنها لم تتمن لنفسها دورًا بطوليًا، وفكرت أنها هي أيضًا بحاجة إلى القليل من الجشع، على الأقل إلى أن يعود إلى زوجها صوابه.

الإشكالية الوحيدة، خارج مهمة رص الفصوص، تكمن في المكواة، فانقطاع الكهرباء المتكرر، خصوصًا حين يتأخر سليم العليمي عن سداد الفواتير،

تسبب في معاناة كبيرة في البداية، وكأن الخوف الثقيل في عيني تهاني كلما ضغطت، ولو لثوانٍ، بمكواتها على القماش، لا يكفي، ولا بد عليها أن تستبدل الخوف بالقلق من تأخر مواعيد التسليم، وفقدان ثقة الموزعة، وحرمان بيتها من مدخول كاف للشهر، ولهذا اتجهت إلى مسعدة بنت سعيد الشاحذي، مجبرة الحارة، إذ كانت قد رأت لديها إحدى المكاوي القديمة التي تعمل بالجمر. وناوبت بين استعمال هذه وتلك. لم تبح تهاني بسرها إلى مسعدة، وبالغت أكثر في التستر بوضع طبقة من القصدير على مكواة الجمر، خوفًا من أن تلتصق الفصوص فيها، حتى وإن لم تصنع الشيء ذاته مع مكواتها الكهربائية.

ما لم تتوقعه تهاني بنت حسن الجماعي هو أن كلًا من زوجها سليم العليمي، وابنها فؤاد، وجدا في هوايتها الجديدة غرضًا مسليًا، أثار اهتمامهما من بعيد أول الأمر، حتى تزايدت النظرات المختلسة لتردد يدها بين القماش وكيس الفصوص، وأجبرهما على الاقتراب للمشاهدة فيما بعد، ولم تتخيل تهاني أنها قد تجدهما ذات يوم، بعد عودتها من زيارة نسائية مسائية، يتناوبان توزيع الفصوص، وملاحقة الخطوط المتلوية على القماش.

توبيخها الأول لهما تبعه ابتسامة حاولت إخفائها، فنهضت مسرعة وأزالت القماش عن الطاولة الخشبية الصغيرة التي اعتادت العمل عليها، ثم مدت فراشًا طويلًا على الأرض، وثبتت القماش عليه بمنفضة سجائر في كل ركن، وعلى كل طرف، ليسع القماش بهذا كل أرضية الغرفة، ما عدا أطرافها التي

تكفي عابرًا واحدًا يطوف حولها كلها.

ما عناه كل هذا كان تغييرًا في الاستراتيجية التي تبعتها تهاني، إذ كانت تكتفي سابقًا بأن تمد قطعة صغيرة من القماش على طاولتها الصغيرة، تقربها من حضنها، وتنجز الدرع الواحد قطعة قطعة. أما الآن، فبدا من الأفضل أن يتشارك الجميع، يكفي أن يمسك كل واحد منهم طرفًا من القماش، ويبدؤوا العمل إلى أن يلتقوا في المنتصف، ثم تمر هي بمكواتها الجديدة على القماش كله دفعة واحدة. وقد أثمر هذا التغيير، خصوصًا مع تضاعف الأيدي العاملة، وأدى إلى اختصار وقت العمل على القماش الواحد إلى أقل من النصف، وتحديدًا إلى يوم واحد فحسب. بهذا لم يعد لانقطاع الكهرباء من تأثير وتخلصت من خطورة مكواة الجمر، فيكفي أن تمر تهاني على الدرع بأكمله بالمكواة ضربة واحدة متى ما توفرت الكهرباء.

أما ما لم تحسب تهاني حسابه إطلاقًا، فهو أن يكون لكل من زوجها وابنها ملكة طبيعية، ودقة هائلة في أصابعهما، والأهم من كل شيء شغف فائض يكفيهما لساعات دون استراحة حتى. فؤاد بالذات بدا طفلًا مختلفًا متى ما استراح إلى ركبتيه، وبدأ يتناول حفنة من الفصوص في راحة يده، ويوزعها على النقش بأصابع يده الأخرى. كان يستمر لساعات دون ملل، ودون أن يشتكي أو يطالب بأي مردود حتى، وكلما آلم تهاني ظهرها من الانحناء لساعات، وشعرت أن مقلتي عينيها شارفتا على الانفجار، لم يخفف عنها إلا السكون الذي يشع به ابنها، إذ كان في انسجامه مع التفاصيل، على بطئه في

الحركة، وقع هادئ ينزع عن الهواء المحيط انفعاله.

انتهى الأمر بتهاني إلى ترك العمل، غالبه، في يد ابنها في نهاية الأمر. سليم، كعادته، كان يساعد على فترات، إلا أنه حين يفعل، فإنه كان ينغمس في شغف، ويتبع أوامر ابنه دون لماذا، ولكن! حتى تهاني ذاتها لاحظت أن فؤاد بدأ يصحح مسارات الخطوط التي عملت عليها، ويعيد ترتيب التفاصيل التي أهملتها.

أمر كهذا، وإن حز في نفسها، بل وهز ثقتها بقدرتها على إنجاز أبسط المهن التي أوكلت إليها، إلا أنه أعطاها أمانًا دفعها أكثر لترك المهمة كلها في يد فؤاد. فقد كانت تدرك- رغم عنادها وإصرارها على الإنكار- أن أصابعها بالكاد تسعفها لتلقط فصًا واحدًا، ناهيك، عن وضعه في خط مستقيم، أو الاستمرار على تلك الدقة لساعات. أما فؤاد فيعود من المدرسة ويذهب إلى غرفة الدروع، ولا يخرج منها إلا لأوقات الطعام، أو حين يصر عليه رفاقه للعب معهم، وأحيانًا حين يجبره والداه على الخروج، غالبًا لحاجتهما إلى مساءات يختليان فيه ببعضهما. أما تهاني فاكتفت بعملية الكي، وربما بعض التخطيط بناء على توصيات الموزعة، أو تفضيلات التاجر لطبيعة النقوش ومدى كثافتها وشدة لمعانها.

هذا التغيير في طبيعة وجودة العمل، وإن كان تدريجيًا بحكم أن انخراط فؤاد وأبيه كان تدريجيًا كذلك، واستغرق أسابيعًا حتى اتخذ الفريق التشكيل الجديد لتوزيع المهام، إلا أنه كان تغييرًا ملحوظًا شد أنظار الموزعة شيماء

العمري أولًا، وعرفه التاجر الذي أكد على ضرورة فرض هذا المستوى من الجودة والدقة على كل العمل لاحقًا، بل وبدأ يخطط لإيجاد طريقة تمكنه من التواصل المباشر مع العاملة المجهولة، فشيماء لم تكن لتكشف له عن تفاصيل كهذه وتخسر عمولتها مع العاملة الأمهر لديها.

❊ ❊ ❊

١٥

في زيارة شيماء العمري الأخيرة إلى التاجر، وهو رجل ثلاثيني، طويل ونحيل، وبلحية خفيفة تعلو وجهه المدور، ورث عن والده سلسلة محلات متخصصة في كل أنواع القماش الفارهة، وبدا أكثر جدية في توسيع تجارة والده، وأكثر نجاحًا كذلك، وجمعته أكثر من كل شيء علاقات جيدة مع موزعاته في مختلف أنحاء العاصمة... تفاجأت شيماء في زيارتها تلك بتوجه التاجر إلى درج آخر غير ذاك الذي تعرفه، أخرج منه أقمشة ذات جودة كان من الجلي أنها أفضل مما عهدته، عرفت مباشرة أنه يخصصها لموزعات أخريات، بعمالة أمهر وأضمن، وأرفقها مع فصوص كريستالية يكفي الموزعة نظرة إليها لتعرف أنها أغلى من غيرها، بل وتهيأ لها أنه قد يكون ذلك الألماس الذي سمعت به كثيرًا ولم تتح لها يومًا فرصة رؤيته. أرفق التاجر كل هذا بورقة أخرجها من ظرف، وكتب فيها بعض التعليمات والتنبيهات فيما يخص التعامل مع القماش الجديد، وتوجه إليها بنظرة صارمة:

- هذا القماش أقرب إلى الحرير من أي شيء آخر تعرفه عاملاتك، انتبهي!

وحين لم ترد شيماء، واستغرقت في تحسس القماش، وقراءة التعليمات، فإنه واصل:

- ركزي معي! هذه عينة تجريبية فقط، اعتبريه اختبارًا. سلميه فقط للعاملة الجديدة، فقط لها، لا يجب أن تعلم الأخريات، أتعرفين ماذا تفعل بعض العاملات؟! خمني، لا أكذب عليك، هذه تجارب عرفناها، ما تقوم به بعضهن عند استلام مثل هذه الأقمشة هو تعمّد حرقها، أتصدقين؟ أقول لك هذا لتعرفي أنني على علم بكل الخدع الممكنة. قد تسأل عاملاتك المبتدئات: وما الذي يدفع إحداهن إلى إحراق قماش باهض الثمن عمدًا؟! صحيح أنهن يدفعن ما هو أقل من سعره الأصلي، ولكن ما الفائدة من الإبقاء على قماش محروق، أي امرأة عاقلة ستتجرأ على فعل هذا؟ وهو سؤال منطقي للغاية، وعقلاني جدًا، ولكنني لا أبالغ حين أقول إنهن يتعمدن تكبيد أنفسهن تلك الخسارة، والعمل بالمجان تقريبًا على القماش التالي! والسبب؟ السبب بسيط، إحراقهن للدروع يعني أنهن سيشترينها لأنفسهن، فزبائني أكثر ترفعًا من شراء قماش محروق! وهذه القاعدة يعرفها الجميع. صحيح أنني لا أستطيع إيقافهن، إذ لا دليل عندي على تعمدهن، ولا يمكنني الاستغناء عنهن كذلك، أحيانًا تكون بعض الخسائر مقبولة، إلا أنني أقسم لك أنني أرى في أعينهن إعجابًا بالقماش قبل أن يحرقنه حتى، عندي خبرة طويلة في هذا المجال، أؤكد لك أنني أعرف، وأنا أرى في عينيك الآن ما رأيته في غيرك! لا أعلم ما إن كان بإمكاني أن أثق بك أنت حتى، لم لا ترسلين

عاملتك هذه إليّ مباشرة؟! هكذا أضمن لي، ربما تكون أكثر أمانة منك!

- أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل هذا.
- لا عليك، عمولتك ستصلك على أي حال، أنت فقط أرسليها إلي، هذه كلمة ووعد، ووعد الحر دين يا أستاذة شيماء!
- لا، إطلاقًا، لا علاقة للأمر بالمال! أستغفر الله، لست طماعة إلى حد أن أوصد باب رزق أمام إحدى عاملاتي!
- اتفقنا إذًا!
- آسفة، ولكن لا، الموضوع لا علاقة له بالمال كما ذكرت!
- إذًا؟
- كل ما في الأمر هو أن العاملات، خصوصًا في حارة العنبرود، أظنني أخبرتك عنهن من قبل. المهم... العاملات هناك يفضلن إبقاء هوياتهن سرًا، لأسبابهن الخاصة، وأكدن لي مرارًا ألا أحد، حتى التاجر الذي لم يسألن عن اسمه يومًا، يجب أن يعرف من يكن!

وحين رأت في عينيه حيرة واستحضارًا لأي أعذار من الهواء الثقيل حوله، فإنها بادرته بسؤالها:

- ما لا أفهمه تمامًا هو ما حاجة تلك العاملات بقماش محروق! الدمار الذي يلحق بأطراف القماش يمكن تفاديه وإصلاحه، قلت لي هذا الكلام بنفسك، لكن خطأ في قلب القماش يخلف بقعة

محروقة الأطراف لا يمكن تخييطها، أو إعادة تفصيل القماش حولها!

وهو إذ أدرك في عينيها صدق التساؤل والحيرة، فإنه ذهب يقلب في درج آخر، وأخرج منه قطعة قماش جاهزة بفصوصها، وفرشها أمام يديها:

- ألق نظرة إلى كل هذا الجمال، هل ترين من خلل هنا؟

وبعد تفحص هامشي، أشارت شيماء بالرفض، كان درعًا جاهزًا، بتطريز متقن، ثقيل بعض الشيء، تعرف بأن بعض النساء يعشقنه، ولكن لا شيء آخر.

- بالضبط، هذا القماش احترق كذلك، إحدى العاملات الأمينات، أدعو لها كل يوم والله، بنت ناس بحق. هذه العاملة أصلحت قطعة أحرقتها، وأعادتها لي والدموع في عينيها، لا أبالغ، كانت تبكي بحرقة، وقررت أن تدفع لي سعر القماش وتعتزل العمل عندي، كانت صادقة، وكما أكدت لك، فخبرتي ساعدتني في تمييز ما خلف عيون الناس، ودموعها أحرقت قلبي معها، ولهذا سامحتها، وطلبت منها أن تستمر عندي، مر على الحادثة عدة سنوات، كنت لا أزال حديث عهد بمنصبي هنا، وهي الآن أقدم العاملات وأمهرهن!

وبحركة سريعة قلب القماش متحسسًا إياه بيديه، وأشار إلى بقعة على الجهة المعاكسة من القماش، أي ما سيصبح الجهة الداخلية منه بعد تفصيله وعند ارتدائه:

- لو أنك ركزت جيدًا، للاحظت أن الفصوص على هذا القماش لا تتبع النقش بالضبط، كما أنها أثقل من المعتاد لقماش رقيق كهذا، تمعني في النظر! يمكنك أن تري ما أراه الآن صحيح؟! المهم، ما يحصل هو أنه، وحين تخلف المكواة بقعة في مكان ما على القماش، فلا أحد بمقدوره تخييطه. أنت محقة جدًا بهذا الخصوص، ولكن المخادعات من النساء يتجهن إلى قص جزء من الأطراف يغطين به البقعة المحروقة، والتي اخترنها بعناية، بحيث تكون في موقع بعيد عن مرمى البصر، ويمكن اختيار قطعة أخرى لتغطيتها بسهولة. ما أعنيه هو أنهن يحرقهن الجزء الصافي كهذا، حيث لا نقوش، وبالتالي يمكنهن وضع قطعة صافية تلائم البقعة المحروقة، أخذنها من الأطراف، وباستخدام الفصوص، فإنهن يُحطن موقع البقعة المحروقة، ويستفدن من الصمغ أسفل الكريستالات لتثبيت القطعة الجديدة على بقية القماش! حركة ماكرة. إن كيدهن عظيم، عظيم والله! انظري معي، هنا، إذ ما تفقدت القماش من الخلف، فإنك سترين القطعة الجديدة التي غطت على الحرق، أما من الأمام فإنها شبه مخفية، وتغطيها الفصوص، دهاااء، دهاء والله، دمي يغلي الآن وأنا أكلمك!

أما شيماء، فلم ترد، واكتفت بأن تركت للدهشة أن تغمرها، إذ لم تكن لتستوعب أنها لا هي، ولا عاملاتها، قد فكرن بخدع كهذه من قبل، وشعرت

بقليل من الفخر على أمانة فريقها، وبالقليل من الحسرة كذلك على غياب إبداع كهذا عنهن، وخطر على بالها أن نساء الجبل مختلفات عن نساء المدينة بالفعل، ولم تعرف ما إن كن أفضل حالًا منهن، أو أسوأ ربما.

- على أي حال، أقول لكِ هذا الكلام لا لأن القماش الرخيص الذي أعطيك إياه يهمني، بل لأنني لا أعرف طباع عاملتك الجديدة هذه! وأريد أن أوضح لكل منكما الآتي: إذا ما احترق القماش، ستدفعان، كلاكما، ثمنه، سواسية بالطبع، وستعيدانه إلي! هذا شرطي!
- وما دخلي أنا لو هي أحرقته!
- إذًا أرسليها إلي ودعيني أتعامل معها بنفسي.

لم تجب شيماء، وأسرعت في وضع القماش والفصوص في كيس منفصل عن غيره، ودست ورقة التعليمات في محفظتها، إذ كانت تنوي نسخها لاحقًا، والتأكد من أن تهاني بنت حسن الجماعي ستحفظها جيدًا، بل وخطر على بالها لحظتها أنه من الأفضل لها أن تشرف عليها ولو في البدايات.

❊ ❊ ❊

١٦

ما حصل لاحقًا كان خلاف ما دار في ذهن شيماء أول الأمر، إذ قررت فور عودتها للمنزل، ونقاشها المطول للأمر مع والدتها، أنه ربما من الأفضل ألا تعطي القطع لتهاني الجماعي، وأن تعود إلى التاجر في الموعد القادم مؤكدة على رفض العاملة المجهولة للشروط المطروحة، ففي هكذا عمل مخاطرة لا تقدر امرأة بسيطة مثلها على تحملها. وهو ما فعلته بالضبط، فحين أتت تهاني في الموعد لاستلام القماش الجديد، فإنها حصلت على القماش العادي الذي تعرفه في كل مرة.

قرار شيماء هذا، والذي لاقى دعمًا منقطع النظير من والدتها، لم يكن دون تبعات أرقتها، خصوصًا أنها فكرت في احتمالية ارتفاع عمولتها المستقبلية- من تهاني على أقل تقدير- لقرابة الضعف، وتساءلت لليالٍ عما إن كان في دعم والدتها لها من داع للشك، فشيماء تعلم أن والدتها لم تكن تطيق فؤاد أو أمه. تبدي والدتها دومًا تعاطفًا مبالغًا فيه كلما غادرت تهاني منزلهم:

- ينفطر قلبي عليها كلما أتت وغادرت وترنحت وهي تحمل أكياس القماش والدروع، تمعني في جسمها النحيل ذاك، أظنها تزداد ضعفًا في كل مرة، لا أعلم لم تصر امرأة- تظهر على ملابسها وزينتها أثر عائلة عزيزة النفس- على العمل في مجال كهذا، ابنها الكارثي ذاك يكفيها همًا!

ويطفح من عينيها اشمئزاز تعرفه شيماء كما تعرف والدتها.

قررت شيماء بعد تلك الليالي، وفي لحظة انفعال مفاجئ، لترضي فضولها على الأقل، ولترتاح لقرارها، أن تفاجئ تهاني بزيارة تفقدية، فربما ترى ما يطمئنها في لياليها، وينهي الصراع من أساسه. لم تكن معرفة أين تسكن تهاني، بل وإقامة زيارات تفقدية، بالأمر المستغرب، فالعنوان، بالإضافة إلى رهن، عادة من الذهب، شروط أساسية لأي امرأة تود الالتحاق بشيماء وفريقها. كما أن زيارات شيماء لعاملاتها أمر طبيعي في العادة، ولولا عزوف بعض نساء حارة العنبرود، واستنكارهن لفكرة حضورها، بالإضافة إلى تكاسلها عن المشي كل تلك المسافة، لولا هذا لزارتهن دوريًا في بيوتهن، لتفقد الأحوال على الأقل، والتحقق من جودة عملهن.

توجهت شيماء إلى بيت تهاني مع الأنسام الأخيرة ليوم صيفي منهك، محاطة في تسللها بين التلال الوعرة بالخيوط الأخيرة من شمس دامية، وسماء لا يعكر صفوها إلا الجبل الذي يسد الغرب، لم تخش شيماء أن يراها جيران تهاني، فهي لا تهمها كل تلك القصص التي سمعتها عن غرائب الحارة، كما أن تعذر عاملاتها بظروف الحارة وطبيعة نسائها يضجرها، ولكنها فهمت من كلام تهاني، وتحديدًا من شكواها من تألم عينيها تحت ضوء الشموع الخافت، أنها تفضل العمل مساء. أما تهاني فلم تتوقع أن ترى شيماء أمامها في ذاك الوقت تحديدًا، ولم يخطر في بالها-كعادتها- إلا سيناريوهات كارثية، وغير منطقية، ربما، إذا ما فكر فيها ناظر محايد، كأن تأتي شيماء شخصيًا

لشكوى من عملها، أو لتعلن لها إفلاس التاجر أو وفاته حتى، وانقطاع مصدر رزقها الأساسي.

شيماء التي كانت مقتنعة تمامًا بمبالغة الناس في تهيؤاتهم عن حارة العنبرود وجدت نفسها تهمس فجأة، وشعرت بثقل الآذان الصاغية، والأعين المتربصة، حتى والأبواب تقف أمامها، وفراغ السلالم يشي بحضورها، وهي إذ همست فإنها رأت في عيني تهاني خوفًا يتفاقم، ويقترب من نزيف حاد، خالت مرجعه إلى الثقل الذي أحاط بصوتها وهمسها، فطلبت منها الدخول، واستندت على الباب الموصد رافعة عن وجهها لثامها وملتقطة أنفاسها المتناثرة، حتى أنست بحالتها تلك تهاني، التي نست خوفها فجأة، وتذكرت التعب الذي يلحقها كلما زارت شيماء عابرة كل تلك التلال والمنحدرات، ومتفادية للمجاري الطافحة بطرق فرعية، وللحفر العميقة بجسر خشبي يضعه فاعل خير، غالبًا ما يكون صاحب المحل المجاور للحفرة.

تفاجأت تهاني، وارتاحت كذلك، لتأكيد شيماء أنها زيارة تفقدية لا أكثر، وطلبها أن ترى سير عملها، وأن تراقبها تعمل. أشارت تهاني إلى شيماء بأن تضع لثامها، واصطحبتها إلى غرفة الدروع. هناك، وقفت شيماء أمام الباب، تتعجب انغماس الرجل البالغ وابنه في عالم الفصوص، تحت ضوء الشموع، ودون أن يبدر عن أي منهما أي كلمة، أو يبدو أنهما لاحظا دخولها حتى. لم تكن تلك المرة الأولى التي ترى فيها رجالًا يعملون في تطريز الدروع، فمن حين لآخر ترى عند هذا التاجر أو ذاك عمالًا يشتغلون على أقمشتهم

الخاصة، مع فارق شاسع في الخبرة والجودة، وفي طبيعة الأدوات المستخدمة، كتلك المكاوي الضخمة التي تكفي كبسة واحدة منها لإنجاز ثلث القماش. لكن هذه المرة تحديدًا كانت صادمة لأنها رأت في انغماس الرجل وابنه في عملهما حبًا للعمل ذاته، لم تعرفه في غيرهما، ولكنها استدركت، وفكرت في أن الحب لا يفعل كل هذا. ثمة شغف، إدمان من نوع ما يدفع كليهما إلى التقوقع داخل هذه الغرفة، وكأن العالم خارجها لا يعنيهما، حتى وامرأة غريبة عن البيت وأهله تراقبهما منذ خمس دقائق من أمام الباب.

تشير شيماء إلى تهاني بحاجتها إلى الحديث معها، وتتجهان سويًا إلى غرفة توصد فيها تهاني الباب من ورائها:

- لا أفهم، هل هما من يعملان عوضًا عنك؟!
- لا، إطلاقًا، أنا المسؤولة عن العمل، وكما اتفقنا، فأي خطأ أتحمل أنا عواقبه، هما فقط مساعداي!
- لا يهمني من يساعدك حقيقة، ما يهمني هو أن تسلميني البضاعة على أكمل وجه، ما يهمني هو الشغل النظيف! أما كيف تنجزينه فأنت حرة، وما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فشغلك نظيف، وهو المهم، ولكنني ما زلت لا أفهم!

وقبل أن تواصل فإنها رفعت اللثام عن وجهها، واستندت بذقنها على راحة كفها، واستغرقت في تفكير عميق، لم يدم إلا لثوانٍ بالطبع، ولكنها ثوان تكفي

في إطار أي حوار بشري:

- أستطيع أن أفهم، أو أظنني أفهم لم قد يساعدك زوجك، ظروفنا كلنا صعبة، ولا مانع من دخل جانبي، العمل مش عيب، صح؟
- أي والله، الظروف تحكم، وزوجي لا يجد عملًا مؤخرًا، فلم لا يساعدني على الأقل!
- كما قلت، لا عيب في العمل، أي عمل! ولكن ما لا أفهمه هو فؤاد، أنا أعرف هذا الولد، كلما أحضرته معك يقلب لي البيت إلى مزرعة دواجن، أو ينخرط في عراك مع الفتيان في الشارع، ولكن فؤاد هذا، هذا الذي في الغرفة المجاورة، لا شيء فيه يشبه الشقي الذي تجلبينه معك، كما قلت لك، لا أفهم!
- ولا أنا، ولكنها نعمة من الله، وإن كان في هذا العمل ما سيشغله عن مصاحبة أبناء الشوارع، فأهلًا وسهلًا، اللهم لا اعتراض!

لم ترد شيماء، وبقيت تفكر، وتقطع حبل أفكارها بأسئلة مترددة عن طبيعة توزيع العمل، وسرعة إنجاز تهاني للدرع الواحد، بالإضافة إلى كيفية استخدام مكواة الفحم، وحين شعرت أنها فهمت كل شيء، وسمعت من تهاني لا ما يتعلق بالدروع فحسب، بل قصة حياتها كلها، حتى تسامرتا إلى منتصف الليل، تندب إحداهما جروح الأخرى وفقدها أحباءها.

بعد كل هذا، تبادر إلى ذهن شيماء أنها ربما أخطأت بأن وقفت حاجزًا أمام

باب رزق أرسله الله إلى تهاني دون أن تسأل، ورأت للمرة الأولى على الإطلاق ما لم تشغل بالها به يومًا، أي تهاني ذاتها، ورأت وجهها الأسمر النحيل الذي يظهر عظام وجنتيها، وحبة الخال التي تزين عنقها، والعينين الداكنتين وحزنهما، والجسد الذي يتحامل على نفسه، ويبدو موشكًا على الاستسلام في أي لحظة.

تبادر إلى ذهنها أن تبوح بكل شيء دفعة واحدة، وفكرت في أن أمها، رغم ما تعرفه عنها، كانت محقة في خوفها على تهاني، ولكنها تراجعت قبل أن تقول شيئًا، وطلبت أن تعود إلى بيتها، إذ لاحظت تأخر الوقت، فعرفت تهاني في عينيها خوفًا مألوفًا لديها، حسبته خوفًا من الظلام، فلم تجد إلا أن تصر عليها وترافقها هي وزوجها إلى منزلها، ويؤكدا لها أنه من الأفضل أن تزورهم في وقت أبكر في المرات القادمة.

في المرة التالية التي حضرت فيها تهاني بنت حسن الجماعي حاملة معها القماش الجاهز إلى بيت شيماء، كان يعتري شيماء مسحة من التردد عرفتها تهاني بسرعة، وظلت بسببها تقلب بصرها بين شيماء والكيس الذي وضعته بجانبها. وما إن انتهت من تقديم الأقمشة الجاهزة، وتأكدت شيماء من توافرها على ما أكد التاجر لها مرارًا أنه شغل نظيف، فإنها أخرجت من الكيس قطع القماش الحريرية، وقدمت شرحًا تفصيليًا بكل ما حصل لتهاني، ولم تتمالك نفسها بأن انهمرت باكية وهي تقدم اعتذارها، وتمسك بيد تهاني طالبة منها السماح.

الحقيقة هي أن تهاني لم تأبه إطلاقًا لنزوات شيماء، لا لأن لها قلبًا واسعًا سريع الصفح أو قليل الغضب بالضرورة، بل لأنها لم تهتم، هي ببساطة لم تهتم، وحين شعرت بأنها لم تهتم، ولم تغمرها مشاعر الاستفزاز والغضب التي توقعت أن تغمرها في موقف كذاك، فإنها هلعت، وماجت أفكارها وخيالاتها، ولم يشغل بالها إلا أن بعضًا من زوجها قد صار فيها. وهي إذ قبّلت يد شيماء، وأخبرتها أن "الأمر كله لله، والرزق كله من الله، والله كله خير!" فإنها لم تكن متأكدة مما إن كان يجب أن تقول ما قالته، وما إن كانت كلماتها هاته هي أيضًا بعض زوجها الذي اندس فيها!

انشغال تهاني بكل هذه الأفكار لم يعطها فرصة كافية للتفكير في العرض، ولم تستعد تركيزها إلا وشيماء تؤكد لها أنها ستزورها هذا المساء، وستشرح لها تفاصيل القماش الجديد وكيفية التعامل معه. لم تكن تهاني بنت حسن الجماعي لترفض العرض المغري على أي حال، حتى لو كانت بكامل تركيزها من البداية. هذا ما تبادر إلى ذهنها بعد سنوات، وما أكدته للتاجر بعد أن التقته بعد سنوات طويلة، ولم تستطع أكثر من أي شيء أن تنكره على نفسها، فقد كان عرضًا جيدًا للغاية، حتى في ظل المخاطرة.

قدوم شيماء إلى منزل العليمي هذه المرة تطلب حضور فؤاد وانتباهه التام، ذلك أنها حين أدركت أنه هو المعني الأول بالعمل، بل وأنه قد بدأ يستلم، ولو نادرًا، العمل على المكواة، فإنها أعادت صياغة التعليمات، بل وأضافت تفاصيل أخرى من عندها، بالإضافة إلى بعض الرسومات التوضيحية،

لتضمن أن الفتى متقلب الأحوال ذاك كان قادرًا على استيعاب كل التفاصيل:

- هذا القماش غالٍ يا فؤاد، غالي، أتفهم ما تعنيه كلمة "غالي"؟! غالي بمعنى أن غلطة الشاطر بألف، وأكثر من الألف، أنت شاطر وتفهم ما أعنيه!

وحين ترى في عينيه فراغًا يتكرر كلما حاولت أن تشرح تفصيلة أو تتلو ما كتبته البارحة من جمل جاهزة خالتها قد تساعد، فإنها تتهرب من الفراغ بإغراق نفسها بكلمات أكثر، وشرح أطول، وتجد نفسها فجأة في فراغ أعمق، ولولا أن تهاني نكزتها من كتفها فجأة، لاستمرت تحاوره في دائرة مفرغة، ولما سمعت أمه تهمس في أذنها:

- أريه، أمسكي قطعة القماش، واجعليه يراقبك! هكذا يتعلم فؤاد!

كان هذا أحد أكثر الأسرار التي اعتزت تهاني بنفسها لمعرفتها إياه عن فؤاد، فؤاد الذي تعرف أمه في عينيه الفراغ الذي يتيه فيه غيرها، كان بحاجة إلى أن يرى، وبحاجة أكثر إلى أن يشغل يديه، ويغمسهما في وحل التجربة. لاحظت تهاني الأمر مبكرًا، وهو وإن أحرق أعصابها أول الأمر، فإنها تقبلته بسرعة، وأدركت بأن لا حل في مواجهته، لا العصا ولا الخيزران ولا الأحزمة وأعواد الثقاب تنفع، ولا أساليب الحب والحنان التي أوصتها بها جارة أقسمت لها أنها لم تضرب أطفالها يومًا، وأنها ترى فيهم أصدقاء مقربين.

المعلمون تحديدًا كانوا أكثر شكوى من غيرهم، حتى بدا لبعضهم أن فؤاد حالة شبه ميؤوس منها. يخاطب أحدهم والدته في زياراتها المتكررة، غالبًا

لانخراط فؤاد المعتاد في مشاكل لا يمكن توقع طبيعتها ولا حجم أثرها، ويسهب في كلام كان من الجليّ أنه دفنه في قلبه لعقود أو أكثر:

- الغريب هو أنه ليس مشاغبًا أثناء الدرس، لا، أبدًا، نعم، أعرف أنه كثير المشاكل وغريب الطباع، وأعتذر عن هذا الوصف، وإن كنت مقتنعًا أنه وصف حقيقي، وأن على الآباء أن يتقبلوا أبناءهم مثلما هم، ويكونوا واضحين في تصوراتهم عنهم. كما ذكرت لك، فؤاد لا يصدر ضجيجًا أثناء الفصل، ولا يتحرك حتى، يبدو الأمر لمن يتمعن فيه وكأنه مستمع جيد، كنت مسرورًا به في البداية، وبدأت أوجه خطابي إليه، هذه حركة يفعلها المعلمون عادة، إذ لا يمكن أن تنظري في أعين ثمانين أو تسعين طالبًا دفعة واحدة، ولهذا فنحن نختار الأعين التي نوجه إليها نظراتنا، وفؤاد هذا كان مثاليًا، حتى أنني بدأت أشعر بطمأنينة كلما رأيته مستغرقًا في الانصات، وكأن درسي هو كل ما يمكن أن يشغل كل خلايا دماغه الصغير ذاك، ولكنني اكتشفت لاحقًا، وبطريقة غريبة بحق، أنه لم يكن يستمع لي أبدًا، لم يرفع يده يومًا، فتوقعت أنه خجول، أو ربما هو أحد العباقرة الذين يعرفون أجوبة الأسئلة كلها، نحصل على واحد من هؤلاء مرة كل فترة، ولكنه- على النقيض- لم يكن يستمع إطلاقًا، وكلما خاطبته لم يبد أنه يعي أنني أناديه أساسًا. عيناه معي، وباله في مكان آخر، وكأن كل الكلام الذي ألقيه في وجهه يعبر من خلاله، أو يرتد

عنه كما لو أنه مغناطيس، تعرفين، حين تضعين قطبي مغناطيس متماثلين أمام بعضهما، فإنهما يطردان بعضهما، وهكذا هو فؤاد تمامًا مع كل ما نقوله له. حالته ميؤوس منها، لو كنت مكانك لأخذته إلى مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة، أو قدمت له دروسًا خصوصية. مجددًا، أعتذر عن هذا الكلام الفض، ولكنني عند كلمتي الأولى، على الآباء أن يكونوا صريحين مع أنفسهم قبل أبنائهم.

ولكن تهاني لم تقتنع، ولم تهتم، أو تشغل بالها حتى، فقد كانت تعرف فؤاد، وتعرف تمامًا، بل وتوقن بحكم تجربتها كأم، أن فؤاد لا حاجة له باقتراحات كتلك، فكل ما يحتاج إليه هو التعلم بطريقته الخاصة ليس إلا، حتى وإن عنى الأمر أن يرسب في المدرسة، فلا بأس.

❊ ❊ ❊

١٧

أحاط الغربان والبشر بسيارة فؤاد، وتزاحموا جميعهم مع الوقت ليدفعوا في عينيه الذكريات القديمة كلها. وهو إذ كان يحضر نفسه ليوم كهذا منذ زمن، ويتلو صلواته بحثًا عن أمان الوصول، فإنه لم يتوقع أبدًا أن يرى نفسه يغرق وسطهم، ولا أن يرى الغربان ذاتها التي عرفها، بل وسماها بنفسه قبل عشرين عامًا.

جال في خاطره أن الغربان لا بد وأن تكون طيورًا معمرة للغاية إن كان بمقدورها أن تنجو عشرين عامًا بأكملها. لم يكن هذا ما دفعه للاستغراب، بل كونها اختارت من كل الأيام ذاك الذي عاد فيه لتعود هي أيضًا، أو ربما- وهو ما لم يرد أن يصدقه- أن الغربان لم تغادر يومًا. ليس الأمر أنه تشاءم من وجودها، كما فعل الآخرون، إذ كان واضحًا أن الحشود حوله تتجنب الغربان، وإن زاحمتها، كما تتجنب عجلات السيارة، وكما تتجنب موتًا محدقًا ينتظره الجميع، وكأنه محقق لا محالة. إلا أن الغربان لم تكن أيًا من هذا في عيني فؤاد، بل كانت رفيقه الوحيد في الأيام الأخيرة له في الحارة، ويبدو أنها ستكون رفيقه الوحيد في عودته هذه، وبخلاف الغربان، التي عرف فيها ملامح ألفها قبل زمن، فإنه لم يعرف الكثير مما أحاط به.

تغيرت حارة العنبرود، لا كما تتغير الحارات بتعبيد الطرق وتشييد البنايات

فحسب، بل إنه بدا لفؤاد أن كل شيء حوله لا يشبه تلك الحارة التي أقحمت ذاكرتها وهويتها في وجدانه. أمواج متضاربة من الوجوه الجديدة تحيط به، ودكاكين ظهرت من اللامكان، هواء أثقل يكبل رئتيه، وجبل مثقل بالجراح. كان الجبل شبه مختفٍ تحت سجادة الأبنية التي امتدت من سفحه، ولا يُعرف مما سواه سوى بالندوب التي خلفها أهل الحارة في صدر الجبل، خصوصًا الجديدين منهم. فتبادر إلى ذهنه أن لا شيء يمس الحارة وأهلها، حتى الجبل، إلا وتغرس فيه آلامها ودمارها، بوعي منها أو بدون.

وفي تمعنه في الجبل، محاولًا سبر طريقه وسط حشود الأطفال المتقافزين أمامه، فإنه لمح بيتهم، وتفاجأ، ولو قليلًا، إذ كان متأكدًا من أنهم كانوا يقطنون أعلى بقعة في الحارة، ولكن ظلال الحارة المتمددة بسطت حضورها على سطح بيته كذلك، وغالبًا على وجود أمه التي تضاربت أمنياته حيالها في تلك اللحظة. كان فؤاد يرتجف من الداخل، يتمنى أن يرى في وجود والدته بعضًا من ذاته القديمة، وهويته التي يفتقدها، ويتمنى كذلك أن تكون قد انتقلت، أو فرت من هذا الظل الذي غلف منزلها.

كان فؤاد العليمي يدرك تمامًا مدى خوفه ذاك. أخبرته والدته وهو يحبو للمرة الأولى، أن الخوف هو ما سيصحبه في حياته، وكبر ليجد في قلبه نزيفًا وأغانٍ ووحدة باردة. كان بإمكان والدته أن ترى اضطرابه أمام الصراصير، أو تبعث فيه اضطرابها، فما عاد يدري أي خوف هو له. كان بإمكانها أن تتحسس النتوءات التي يولدها الخوف في عينيه، الخوف من المعتاد، والخوف من

الممكن، والخوف من المستحيل. وفي لحظة ما، لا يستطيع تحديدها بالضبط، ولا يتذكر كيف صارت، فإنه وجد نفسه يواسي وحدته تلك بخيالاته، حتى أصبح يصبغ الجدران بأطياف الشمس، ويصفّ الألوان الخشبية أمامه كل صباح كما لو كانت جيشه الذي سينقذه إلى آخر اليوم، ويتصالح، في لحظة فضول، مع "عمتي زبيبة"، لا لأنه أحب العنب، بل لأنه كره أن يكون الوحيد الذي لا يحبها.

إلا أن فؤاد لم يتوقع يومًا أن يتحول من طفل يتمسك بالجدار وهو يعبر الرصيف متجهًا إلى البقالة، لينسكب بعدها بأعوام على الأراضي الترابية والصخرية والشوكية، يلاحق آثار عطور المارين، وسراب الكلمات التي يؤرخون بها خطواتهم، ولم يتوقع أن يتحول زحفه الحذر على الرصيف، مثقلًا بتحذيرات والدته، وتهديداتها كذلك، إلى انطلاق حر بحثًا عن خلاص لم يجده يومًا، حتى بعد أن رحل عشرين عامًا، وجاب أرصفة لا حفر فيها، وأرصفة دست فيها أشجار، وأرصفة بألوان أكثر مما اتسعت له ذاكرة الطفل الذي كانه يومها.

كان هذا الخوف هو أثر والدته الوحيد فيه، حتى وجموح الأطفال يرمي به بين جنون اللحظة ومتعة المجهول. ولو أنه رأى في أبيه خوفًا شبيهًا لتأكد أن الأمر حتمًا إرث عائلي، ولتقبله أكثر. ليس الأمر وكأنه لا يتقبله اليوم كذلك، ولكنه يجلس إلى جوار زوجته، ويسترق نظرات خافتة إليها، ويتضارب مع نفسه، لا يدري أيتمنى أن ترى فيه هذا الخوف كله، أو يتمنى ألا تراه فيه أبدًا،

حتى وإن استفحل وتمثل في انفعالاته العشوائية، وكلماته التي لم تفهمها يومًا.

هذا هو أثر الذكريات في نهاية الأمر، وإن كانت حارة العنبرود قد نست نفسها، كما أيقن فؤاد لحظتها، فإنها حتمًا احتفظت له، بأمانة منقطعة النظير، بكل التفاصيل التي خبأها في جحور هذه الحارة، وتحت سحابها، وفي ابتسامات أبنائها وسيل الكلمات الذي يجرفهم كلهم، ويجرفه معه بعيدًا. ولعله كان يتمنى، في الوقت ذاته، ألا يتذكره أحد، وإن كان يدرك أن هذا غير ممكن، ويتمنى أكثر أن تكون هذه الضجة التي تحمله وسيارته، إلى بيت أمه، ليست إلا الهوية الجديدة التي تقلدتها حارة العنبرود. هوية تخالف الطبع القديم، حيث يلتف الناس حول كل ما هو غريب وجديد، وينسون أنفسهم في رغبة جامحة للتعرف على العابرين.

ولهذا فقد صرف نظره إلى الغربان فحسب، وراح يتذكر ما حدث قبل عشرين عامًا من اليوم، وتمنى لو يقدر أن يبوح لزوجته بكل ما دار في ذهنه حينها، ولكنها كانت منشغلة بطَرق الأطفال على النوافذ وتدافعهم مفسحين طريقًا ضيقًا للسيارة. تخاف أن يسقط أحدهم أمام عجلات السيارة، أو أن يتجرأ أحدهم ويقتحم النوافذ. هي كذلك غمرها الخوف، وهي كذلك لم ترد أن يستشعر فؤاد خوفها في يوم يهمه كهذا. وبين فؤاد وزوجته، طفت سيارة من موديل "ليلى علوي" حاملة معها خوفا ثقيلًا، خوفًا لا يمكن أن تحمله إلا أمواج الأطفال ورفرفات أجنحة الغربان.

١٨

حضور الغربان الأول، قبل عشرين عامًا، كان الحدث الأكثر تداولًا وإثارة في حارة العنبرود منذ زمن. منذ خمسة وثلاثين سنة تحديدًا، كما يؤكد شعلان الأسود. تقاتل يومها أبناء عمومته على أرض، وألقى كل منهم قتيلًا في صفوف الآخر. أما الغربان، فلم تقتل أحدًا، ولكنها جلبت تشاؤمًا، وأخرجت من جعب الناس حكايات لم تُسمع قبلًا: أصرت إحداهن أن جارتها سحرت ابنتها وتريد أن تعيق زواجها بالغربان، وأكد أحدهم أن أرض حارة العنبرود كانت يومًا تعج بالغربان، بجانب القردة، وأن تواجد حيوانين ذكيين مثلهما في مكان واحد هو ما أكد للشيخ المؤسس أن هذه الأرض أرض خير، وأكد آخر، مع تغيير بسيط في التفاصيل، أن ما يحصل الآن هو انتقام رباني من أهل الحارة لتهجيرهم غربانها، وأن الغربان الأولى ماتت، وأتى أحفادها بلا ذاكرة، يملؤها الخوف من البشر.

ودون صورة الجد المؤسس وهو يقطع الأشجار، ويحرق كل ما يجده في طريقة، لم يعدُ الأمر كونه مجرد حكايات، إلا أن التشاؤم كان قد ساد بالفعل، وتوقع الجميع حدوث كارثة، حتى وإن لم يتسبب حضور الغربان بأي كارثة بحد ذاته.

لم يستغرق الأمر طويلًا حتى بدأ أهل الحارة، بحكم تعودهم على ساكنيها

الجدد متى ما رأوا فيهم رغبة البقاء، مستعدين لتقبل وجود الغربان بينهم، بعد أن ملوا حكايات بعضهم، واستشعروا اطمئنانًا في حضور هذه الطيور العاقلة، بل واستعدوا لتقاسم الأرض معها، وإعلانها- إن قررت البقاء لجيل على الأقل- طيورًا رمزية تمثل الحارة. فإن كان لصنعاء حمائمها، فلحارة العنبرود غربانها التي لا يعرفها غيرها.

أما فؤاد، فلم يغير الأمر الكثير بالنسبة له، غير أنه شعر بعزلة عن الأطفال حوله، إذ كانوا قد بدأوا عمليات صيد وملاحقة للغربان، حتى وصل الأمر إلى تجميع صغارها، وتدمير بيضها، بل ودس مختلف المواد في الطعام الذي يلقونه إليها، فقط ليروا أثره عليها.

لم يعرها فؤاد اهتمامًا أول الأمر، ورفض لاحقًا الاشتراك في أي أعمال عنف تجاهها، بل وتلقى ضربًا مبرحًا ذات مرة لأنه حال بين مجموعة أطفال وبيض غراب. ليس الأمر وأنه كان حنون القلب على الحيوانات بالضرورة، فكما أسلفنا، ففؤاد ذاته ولد كثير المشاكل، يجلبه المحيط معه أينما حل وارتحل، ويتضمن هذا رمي القطط الشاردة بالحجارة، وضرب مؤخرة حمار ابن الشميري، وحتى قنص دجاج أم شرهان وصغارها. ولكنه شعر، هذه المرة، دون أن يتمكن من تفسير الأمر، حتى بعد أن كبر وصار يميل إلى تفسير كل ما مر به، بأنه ليس من الصائب أن يؤذي هذه الغربان.

الغربان التي تستند على قضبان النوافذ بالذات جذبت فؤاد أكثر من غيرها. نوافذ غرفة الدروع تحديدًا، فقد كانت أقل الغربان نعيقًا، والوحيدة التي كان

فؤاد متأكدًا، بل وأقسم بالمصحف لأمه، أنها تراقبه، وتحاول أن تفهم ما يقوم به أثناء عمله. تراقبه الغربان في صمت، وتملأ الصمت حوله بأنس يدفعه للاستمرار، بل وضاعف من إدمانه، حتى صار إخراجه من الغرفة يعني في بعض الأحيان استخدامًا صريحًا للقوة الجسدية من قبل والدته، يخلف بين الحين والآخر خرابًا في بعض أجزاء القماش، لتمنّع فؤاد، وعناد تهاني.

تصادف حينها، وبطريقة غير متوقعة، أن سليم، الذي رأى في الغربان نذير شؤم، تقوقع على نفسه أكثر، وتوقف حتى عن مساعدة ابنه في هوايتهما تلك، بعد أن كان قد توقف عن الخروج للعمل لأسابيع، وأصبح بهذا قليل الكلام، يتأرجح ظله في المنزل كلما خطا خطوة في أي اتجاه، ويبدو في كل مرة خفيف الوقع، كما لو أن أحدهم انتزع منه ما تبقى من رغبة في الحياة كان بمقدورها أن تثبت قدميه على الأرض، وتسنده إلى الغد.

لم يكن فؤاد ليأبه لأي من هذا في نهاية الأمر. حضور والده هامشي للغاية في مخيلته، كما لو كان إحدى ضرورات الحياة التي تحصل وكفى، وتقوم بدورها ولا شيء آخر. وهو دور مهم دون شك، حتى وإن لم يلاحظ أحد وجودها، أو يحاول أن يستذكر اسمها. كان والده يكفي ليكون والدًا، ولكنه لم يكن شيئًا آخر بالنسبة له، ولهذا لم يتغير الكثير خلال تقوقعه الجديد ذاك.

تقوقع سليم العليمي لم يكن بالغريب على فؤاد، ولكن أثره له بالضرورة تبعات لا يدركها الأطفال في سنواتهم الأولى، وتحديدًا ارتباط احتياجات الحياة، على بساطتها، بشخص بمقدوره التعامل مع تعقيدات العالم،

وتحويل الأوراق الملونة إلى قيمة ملموسة وحياة أرغد. وفي هذه الحالة، فلم يتوقع فؤاد أن استشعاره الأكبر لأثر والده سيكون في فاتورة الكهرباء التي تكرر تأخره عن سدادها، وانعكاس هذا في بطء سير العمل. ذلك أن فؤاد، وإن كان بدأ يتحمل مسؤوليات أكبر عندما يتعلق الأمر باستخدام المكواة، إلا أنه ممنوع تمامًا من استخدام مكواة الجمر، بل وتلقى درسًا تأديبيًا ذات مرة فقط لأنه حاول أن يخرجها من مخبئها على حين غفلة من والدته.

صحيح أن فؤاد متقلب الطباع، وكثير المشاكل، ولكن والدته كانت تثق في الحدود التي تضعها له، ولهذا فهي حين تتركه وحده للعمل في البيت، فإنها تثق تمامًا، باستثناء مرة واحدة هي الآنفة الذكر، أن فؤاد سيتجنب تمامًا تجاوز تلك الحدود التي تعمل جاهدة على توضيحها والتأكيد على ملامحها. ما لم تأخذه تهاني في الحسبان يومًا هو أنه، وفي مساء عادي كذاك، سيكون بمقدور فؤاد أن يفاجئها، لا بتجاوز الحدود، بل باختراع سيناريوهات جديدة لم تكن لتخطر على بال والدته، لتحظرها عليه أصلًا.

❊ ❊ ❊

١٩

فؤاد العليمي، على صبره الشديد واهتمامه بأدق التفاصيل، وإن تطلب العمل عليها ساعات، لم يكن قادرًا على تحمل انقطاعات الكهرباء تلك، خصوصًا أنه يعلم أن بالإمكان حل إشكالية كهذه ببعض الأوراق النقدية التي تدفع لرجال يرتدون قمصانًا وقبعات سوداء، ويأتون مرة كل شهر لتفقد العدادات.

أضف إلى كل هذا غرام فؤاد الناشئ حديثًا بالألوف التي تجمعها والدته من الموزعة بعد تسليم كل دفعة من الدروع، خصوصًا الدفعات الجديدة. بدا العالم ممكنًا معها، وتحسس فؤاد مستقبلًا ينفض فيه والداه عن حياتهما النزاعات التي حاولا إخفاءها عنه، وتمنى لو يعمل أكثر، ويجني أكثر، ويحمل قلب أمه معه إلى إحدى مستشفيات العالم الحديث، ذاك الذي يسمع عنه، ولا يعرف عنه إلا ما يراه خلف شاشات التلفاز. كل هذا كان كافيًا ليفتح فؤاد ذراعيه بالأمل، وكان كافيًا ليكون وقع تحطم الأمل أكبر مما يحتمل، لا لشيء سوى لأن الواقع لا يمكن اختصاره هكذا.

حتى الجارات غلفتهن الحيرة والفضول ما إن اكتشفن، ولو بلمحات خاطفة، انهماك تهاني وابنها في مهنة جديدة. توصد تهاني باب غرفة الدروع، رغم أنها تعلم، كما تعلم بقية النساء، أن الجميع قد عرف الأمر بالفعل، ولكن أحدًا لا

يتجرأ على الحديث معها حياله، وهي بدورها تتجاهله محجمة فضول الجالسات عندها.

لم يوقف أي من هذا انسياب الكلمات في حارة كحارة العنبرود بالطبع، ولكن التركيز اتجه أكثر إلى الجانب المادي منه، فتساءلت النساء عن سبب حال العائلة الميؤوس منه، فكيف تشتكي تهاني من فاقة، هي نفسها تكسب بسببها الكثير. فؤاد أيضًا وصله الكلام ذاته، وشعر ولو للحظة بأن الحارة تفهمه، وتعرف تمامًا ما يغيظه، وانهمك أكثر في التنقيب في سحابات الإشاعات عما يشفي غليله، ولكن شيئًا لم يكن، فلا هو، ولا الجارات، كان بإمكانهم استيعاب ما يعنيه العمل في مجال كذلك. وهو عمل مربح بالفعل، خصوصًا إذا ما قورن بالمجهود المبذول، وظروف العمل عمومًا، ولكنه لا يرقى إطلاقًا إلى كونه مصدر دخل كاف لعائلة كعائلة العليمي، ناهيك عن غيرها.

الحقيقة هي إن ما تحصل عليه العاملات لا يعدو كونه فتاتًا يلقي به التجار إلى النساء المحتاجات، وتلتهم منه الموزعات نسبة ليست بالقليلة، وهو ما يدفع العاملات إلى مضاعفة الإنتاج لكسب أي دخل محترم، وهو ما يقودهن أكثر إلى إنتاج تطريزات رديئة، يحب التجار أن يشتكوا منها، ولا يفعلون شيئًا حيالها.

لم يكن بإمكان تهاني يومًا أن تعيل البيت بأكمله، كان كل مما تتمناه هو دخل إضافي يعيل عائلاتها، أو تشتري به ذهبًا ينقذها في أحلك أيامها، ولكن فؤاد لم يكن ليفهم هذا، وهو إذ يرى الألوف، لم يتبادر إلى ذهنه يومًا أن يسألها كم

تكون، ولا أين تذهب، واكتفى بأن يغمره القهر وهو يرى الكهرباء تنقطع عن بيتهم دونًا عن جيرانهم في الحارة.

ذات مساء، كانت تهاني بنت حسن الجماعي قد دعيت إلى إحدى الجلسات النسائية الروتينية داخل العمارة. تصادف أيضًا أن سليم العليمي كان قد قرر الانعزال في جرف الجبل مع قاته. وأثناء غيابهما اختمرت فكرة ما في رأس فؤاد، بعد أن أقلقته لزمن ليس بالقليل.

لم تأت الفكرة من العدم بالطبع، ولم تختمر كل ذاك الوقت دون تدخل خارجي، بل كان للغربان دخل مباشر فيها. ولهذا يمكن القول، وفق تعبير فؤاد ذاته، أنها كانت فكرة الغربان، وأنه لم يقم إلا باستعارتها منهم. كل ما في الأمر، على أي حال، هو أن فؤاد رأى غرابين على أسلاك الكهرباء العمومية المعلقة قرب النافذة، وتعجب للغاية- رغم أنه كان قد رأى المنظر ذاته من قبل- حيال السبب الذي يحول بين الغربان والموت صعقًا. وهو، وإن لم يجد الجواب مباشرة، إلا أنه ربط بين عدد الأسلاك العمومية، وعدد الأسلاك التي تحتاجها المكواة الكهربائية، وقرر أنه لو تصرف كما تتصرف الغربان، وتعامل بحذر تام كما تفعل هي، وتجنب أن يمس سلكان بعضهما، فإنه سينجح في تشغيل المكواة دون شك.

قطع بعض الأسلاك، تصادف أنه كان قد جمعها مع ابن الشهاري، إذ كانا يلاحقان عمال الكهرباء ويلتقطان كل ما يسقطونه. وقام بحذر وتأن بتقليد عمال الكهرباء، والطريقة التي يغمضون فيها عينًا ويركزون جيدًا بالأخرى،

ويخرجون ألسنتهم من أطراف أفواههم لضمان ثبات أيديهم، وصنع خطافين معدنيين ثبتهما على أطراف الأسلاك التي عنده في البيت.

خطة فؤاد كانت بسيطة للغاية، ما إن يرمي الخطافين على اثنين من الأسلاك، حتى يتوفر له فجأة خط كهرباء جديد، ومجاني، وأقل انقطاعًا من سواه. لم يشغل فؤاد باله بالخطوات التالية كثيرًا، أي بعد أن يكون قد سحب الأسلاك المكهربة عبر النافذة. فكر ربما بالبحث عن منفذ كهربائي قديم يمكنه توصيل الأسلاك عبره، أو في أنه بالإمكان قطع توصيلة المكواة وربط الأسلاك مباشرة، ولكنه لم يأخذ التفاصيل بعين الاعتبار، ولم تغلبه العجلة لكيلا يستبق الأحداث، فربما لا تنجح الخطة، وهو ما كان احتمالًا واردًا شكَّل أكبر مخاوف فؤاد.

الدقة التي أبداها فؤاد في عمله على الدروع انعكست بدورها على الطريقة التي ربط فيها الأسلاك والخطاطيف ببعضها، حتى أن الرجال الذين وجدوا تلك الأسلاك لاحقًا توقفوا قليلًا ليؤكدوا لبعضهم أن هذا العمل متقن ويستحق الإشادة، وربما من الأفضل توجيه قدرات هذا الطفل في اتجاه عمل منتج، عوضًا عن الأفكار المجنونة التي تراوده.

حين حان الوقت، رمى فؤاد الخطاف الأول إلى أقرب أسلاك الكهرباء العمومية عبر النافذة، ولم تبدر عنه أي ردة فعل، ولو حتى ابتسامة، عندما تيقن من أنه نجح. وليتحقق من صدق نظريته فقد قرر أن يمس السلك بيد عارية، وحين لم يصعق، فإنه أيقن أنه على الطريق الصحيح، ومن الجدير به

أن يرمي الخطاف الثاني.

استجمع فؤاد قوته وهو يوجه الخطاف إلى أمام وجهه، وبعين مغمضة، ولسان خجول يمتد من أطراف شفتيه، رمى الخطاف باتجاه السلك الثاني الموازي للأول، والأبعد منه عن النافذة، وأصاب هدفه بدقة مذهلة. لكن، وما إن حاول فؤاد أن يشد السلك لتثبيته في قضبان النافذة، فإن جزءًا من السلك الثاني لمس الخطاف الأول، وظهرت فجأة كرة برق ساطعة، تلاها انفجار مدو، وانقطاع مباشر للكهرباء في ذلك القطاع من الحارة.

❊ ❊ ❊

٢٠

لم يعرف أحد ما حصل حينها، فقط تهاني بدأت ترتعد دون أن تفهم السبب. لم تلحق بباقي النساء المتجهات إلى النوافذ والأبواب. حاولت أن تطمئن نفسها بأن خوف هذه المرة يشبه كل خوف آخر، ففؤاد لا يمكن أن يكون قد صنع شيئًا، وإن فعل، فلا يمكن أن ينتج عنه انفجار كهذا. وهي وإن لم ترد أن تعترف في البداية، فإنها بدأت تميز من بين الأصوات المتضاربة حولها كلامًا عن رجال متجمعين أسفل العمارة، وأطفال يشيرون إليهم للنظر إلى الأعلى. سُمع صدى خافت لأحدهم وهو يتحدث عن صاعقة فاجأتهم. انتبهت تهاني بعدها إلى الأصوات الطالعة من درج العمارة. وبنات الجارات بدأن يصرخن لسبب ما وهن يصعدن ويطرقن الأبواب بعنف، والجميع يؤكد أن الصوت جاء من إحدى شقق العمارة.

في تلك اللحظة بالذات انتبهت تهاني إلى أن فؤاد ليس ضمن الحشود المتدافعة، وأن أصوات البكاء الممتزجة بلهث وحيرة، وأسئلة أمهات لا تعرف كيف تتلمس طريقها، وأن كل شيء آخر يشير إلى أن خوفها قد يكون محقًا، للمرة الأولى ربما، وأنه لم يكن يشبه أي خوف آخر، فانطلقت تحمل قلبها في يديها مسابِقة مخيلتها التي بدأت في استحضار أحلك كوابيسها. وما أن وصلت إلى أمام باب الشقة، حتى بدأت تطرق بأقوى ما تملك، وتنادي

على فؤاد، وتهدد فؤاد بأنه إن لم يفتح الآن فإنها ستبرحه ضربًا بعصا الخيزران الجديدة التي لم تمس جلده بعد.

كان الباب موصدًا بالأقفال التقليدية، تمامًا كما أوصته، فالمفتاح الذي معها لم يكن كافيًا للدخول، وهو ما أكد لها أنه في الداخل، ولكنها لم تسمع من خلف الباب صوت خطواته المعتادة متى ما طرق أحدهم الباب، ولا حتى صراخه متململًا من اضطراره للتوقف عن العمل، ولهذا فقد طرقت أكثر، وأقوى، وبدأت تصرخ بثقل ماضيها كله، وتشعر بأنها تتساقط، وتتساقط منها الذكريات الضائعة، والمشاعر المدفونة، والأمنيات التي لم تتحقق، وسقطت على ركبتيها باكية دون أن تتوقف عن طرق الباب، ودون أن تخف قوة الطرق.

لم تنتبه تهاني للنساء اللاتي التقطنها من الخلف إلا حين بدأن في جرها إلى الشقة المقابلة، وهي إذ رفضت وتمنعت، فإنها كانت أضعف من أن ترفع جسدها أو ترفع عنها أيديهن، حتى انتهى بها الأمر خلف باب موصد، وبنساء يحاولن إلباسها عباءة وحجابًا نزعته إحداهن عن نفسها. أما ما خلف الباب، فبدا بعيدًا للغاية فجأة، ولكنه لم يكن بعيدًا بما فيه الكفاية ليسع خوفها كله، حتى أنه نضح إلى قلوب من حولها، وخلق عالمًا هستيريًا لا يفصله عن الواقع إلا الباب الموصد، وضجيج صادر من كل اتجاه.

سمعت النساء فجأة أصوات ضرب هائلة في الدرج، كانت كفيلة بتبديد الضجيج وإعادة موضعة الخوف، وزيادة إصرارهن في تقييد تهاني. كان

الرجال قد احتشدوا وتساندوا لكسر الباب، أو قفله على الأقل، ومن حسن حظهم أن قفل الباب كان أضعف من أن يحتمل دفعًا أكثر بعد طرقات تهاني الجنونية عليه. وما إن فُتح الباب حتى حل صمت صارخ، فقط تهاني استمرت في النحيب، متجاهلة إشارات النساء بالسكوت، وحتى محاولة إحداهن كتم أنفاس تهاني بيديها. كان الكل يترقب، حتى الرجال في الخارج لم تسمع إلا خطوات أقدامهم للحظات. وتأكد الجميع أن لغة العيون هي كل ما يحق له اختراق الصمت، وأن الوجود بأكمله كان عليه أن يفرض إشارات العيون لغة رسمية للكوكب، ولو لثوانٍ، ريثما يعرف الجميع ما حصل خلف الباب.

كسر الصمت فجأة صراخ أحد الرجال:

- افسحوا الطريق، افسحوا الطريق!

وتبعه صوت آخر:

- سيارة أحمد شغالة، اركب معه بسرعة!

تلاحقت الخطوات، ولم يجد الصمت إلا أن يعم لوقت أطول بعدها. تنظر النساء في أعين بعضهن بحثًا عن كلمات أخرى تفسر ما حصل، كلمات أخرى غير تلك التي دارت في أذهانهن لحظتها، وتجنبن تمامًا أن ينظرن في عيني تهاني بنت حسن الجماعي. رفعت المرأة التي حاولت كتم أنفاسها يديها عن تهاني، واحتضنتها إليها وربتت على رأسها، ولم تقل أيهن شيئًا، واكتفت بعضهن بمراقبة النافذة أملًا في معرفة ما حال الباب دون رؤيته.

كل ما استطاعت النساء رؤيته هو "ذراع متدلية لطفل في حضن شاب، وسيارة مهرولة"، كما أكدت امرأة العاقل لزوجها بعد أعوام من الحادثة. لم تساعد تلك اللقطة التي شغلت مخيلاتهن في استحضار كلام يواجهن به تهاني، ولم تتوقف تهاني عن النحيب، حتى بدأت ترتعد كالأطفال، ويتقطع نفسها مع بكائها، وينهار ما تبقى من قوة من جسدها، لتفقد وعيها إثرها، ولا تستيقظ إلا بعد ساعة، وبحضور ممرضة أصرت عليها أن تبقى مستلقية ريثما تنتهي "المغذية" من سكب محلولها في مجاري دمها.

كان فؤاد لا يزال في المستشفى حتى تلك اللحظة، كل ما عرفته تهاني هو ما تناقلته النساء في تيارات الأخبار التي كانت أسرع من سابقاتها، وأكثر كفاءة، حتى بدا أن المسافات تقلصت وصار بإمكان الجميع أن يعرف كل التطورات سويًا. أكد علي ناجي لامرأته أن الطفل بخير، وأن الأمر لا يعدو كونه حرقًا بسيطًا، وأنه رآه بعينه، فاقدًا للوعي ربما، لكن حي بكل تأكيد، ولا يحتاج إلا لبعض الرعاية. وتناقلت هي، وكل النساء اللاتي تسابقن إلى الأخبار من رجالهن وأطفالهن، ما تهيأ لهن أنه أمل قد ينتشل تهاني من حالها ذاك، ولم يخفهن أكثر من أن يعجز قلبها عن تحمل خوف أكبر، وإغماء آخر.

لم يتطلب الأمر إلا دقائق فقط لينفد صبر تهاني من الكلمات المتداخلة فوق رأسها، ولكنها كانت أضعف من أن تقول أي شيء، وأجبن من أن تفعل شيئًا. كل ما فعلته هو الانتظار قليلًا ريثما تنصرف الممرضة، لتعود إلى شقتها. لسبب ما، لم تستطع تهاني ذاتها شرحه لاحقًا، كانت تتوقع أن تفتح باب شقتها

لترى فؤاد منهمكًا في عمله، يتجاهل دخولها ومخاطبتها إياه، ولا يعنيه شيء خارج عالمه الصغير ذاك. ولكنها وجدت غرفة فارغة إلا من خرابها، آثار أحذية على الدرع، وفصوص مترامية دخلت في الفراغات بين السجاد والمساند، ووصلت إلى حواف النوافذ، وبين هذا وذاك، رأت الأسلاك التي صنعها ولدها، وشعرت ببعض الانبهار من قدرته على اختلاق حماقات كهذه، وشعرت أكثر بغضب جم...

كان الغضب يموج بجوفها، يهزها من عروق العظام، ويجرجرها معه بين أركان الغرف وجميع النوافذ. للحظة حتى بدا وكأنها نسيت فؤاد، ولم يشغل أنفاسها أكثر من زوجها الغائب، لا تعرف أين هو، ولا يعرف هو ما حل بهم من مصيبة، ولو أن ولده توفي لكان آخر من يعلم في الحارة كلها. لم تجد تهاني إلا الانتظار، تقلب في أدراجها وأكثر أفكارها سوداوية، تمسك سكينًا تارة، وسيخًا حديديًا تارة أخرى، تتخيله أمامها، وتتخيله بعيدًا عنها تمامًا، وتتخيل أنها لم تعرفه يومًا، أو أنها عرفت فيه رجلًا آخر، وتتخبط بين تدافع الدقائق والصمت الذي أطبق على كل الحارة فجأة، وجرجر معه الليل، والظلام، والوحدة.

ليس الأمر وكأنه لم يخطر على بالها أن ترسل أحد الصبية للبحث عنه، ولكنها لم تكن لتتحمل طعنات الكلمات السارحة، والكلمات المتسترة، والكلمات التائهة والخائفة. يكفيها مصابها هذا ليشغل الحارة وأهلها لأعوام، ولا حاجة لها بتفاصيل أكثر تلتصق بأحداث هذا اليوم. لم تكن تعلم

تمامًا أين يذهب سليم! إلى أعلى الجبل، أو إلى جوار مغارة ما، هذا مؤكد، لكنها لم تسأله يومًا عن التفاصيل، تلاعبت في خيالاتها بفكرة تعقبه ذات يوم، لكنها تكاسلت، ولم تتوقع أن تشعر بالندم على تكاسلها يومًا.

برزت أمام عينيها فجأة صورة فؤاد، محروق الوجه، وممددًا على سرير مشفى ما، ولكنها هشت الفكرة عن خيالها، وبحثت بعنف أكثر في الأدراج وخلف الأبواب والأثاث المبعثر. فتحت غسالة الملابس والثلاجة، رفعت المساند والسجاجيد، تمامًا كما فعلت في اليوم الأول لوصولها إلى حارة العنبرود، ولكن هذه المرة، على أمل أن تجد زوجها، حتى وإن تطلب الأمر قلب السجاجيد ورفع ذرات الغبار، بحثًا عن طيفه، وأهم من كل شيء، بحثًا عن الكلمات التي ستمطره بها حالما تجده.

عادت حينها صورة فؤاد لتغشي على عينيها، هذه المرة في حضن ممرضة تغمض على عينيه، وتذرف دمعة، وتلعن والديه، فهشّتها عن نفسها بعنف أكبر، لكن دون فائدة، وكأنما صارت تلك الصورة السراب الذي يقودها من ظمأ إلى آخر، ويرافقها معه إلى موت محقق، أو تيه أبدي، ولم ينقذها منه إلا أنها سمعت خشخشة صادرة من الباب، صوت مفاتيح تحاول إيجاد طريقها عبر أقفال فتحة الباب، يتبعها ظل رجل يتهادى وتحت إبطه مدكاه وفراشه.

❊ ❊ ❊

٢١

ما إن دخل سليم حتى سأل تهاني:

- ايش معانا من عشا؟ أنا جاوع موت!

- ايش من عشا يا ملعون الوالدين، ابنك مات يا كلب!

ولم تصدق أنها نطقت بتلك الكلمات، ولم تدرِ لمَ بدت واثقة تمامًا لحظتها من أنها خسرت فؤاد بالفعل. ربما كان هذا ما تخيلت نفسها تقوله قبل أن تنقض عليه، لم تكن موقنة من تلك الكلمات، ولكنها قالتها على أي حال، وانهارت باكية من جديد. كل هذا وسليم مشدوه دون حراك، لم يسقط حتى ما في يديه، ولم يتجرأ أن يقول شيئًا قد يبعثر من أوراق القدر، فربما حصل خطأ ما، في مكان ما، دون أن يعلم، ومن الأجدر به ألا يكون مشتتًا آخر لأي كان ما يحصل أمامه الآن، إلا أنه، وبينما كانت تدور كل هذه الأفكار في رأسه، فإنه كان يصرخ من أعماق جوفه: "يا فؤاد، يا فؤاد!" ويهرع من غرفة إلى أخرى، مخترقًا عنوة الظلام، والأبواب الموصدة.

لم يجد سليم العليمي ابنه في أي من الغرف بطبيعة الحال، ولكنه شعر بأن صوته أيقظ شيئًا ما آخر حوله، وبدا له حينها أن الهمسات التي طفحت من درجات العمارة كانت تعلم ما يجهله، وتراقب تحركاته وإن لم تره، وشعر للمرة الأولى- ربما- بخوف عميق، يشبه تمامًا ذاك الخوف الذي عرفه في

زوجته منذ اليوم الأول، ويشبه أكثر من كل شيء ذاك الخوف الذي ظن أنه كبر عليه، أو تجاوزه. خوف فاقم منه منظر الأسلاك الكهربائية المتدلية من النافذة، ولهذا فقد اتجه إلى تهاني التي سقطت على إحدى المساند، وضم نحيبها إلى صدره، وحاول أن يستفسر منها عن فؤاد، أين هو فؤاد! وكأنه كان موقنا أنه ربما إن علم أين هو لانتشله من براثن الموت.

انفجرت تهاني فجأة، دفعته عنها وبدأت تصرخ، صرخت بملء رئتيها، وصرخت وكأنها تعلمت الصراخ للتو، ولا تجد غيره لتعبر عن وجودها. يداها ترافقان الصراخ، فتمسكان بشعرها تارة، وتحاولان تمزيق رداءها تارة أخرى، وعيناها غارقتان في الدم والدموع.

لم يستوعب سليم كل هذا الصراخ، فمد يده مجددًا محاولًا استشعار بعض العقلانية، أو على الأقل، بعض النحيب الصامت الأول، ولكنه كلما مد يديه صدته عنها، وكلما حاول أكثر زادت حدة انفعالها، حتى بدأت فجأة في ركل المساند والأقمشة، وضرب نفسها في الجدار، ولم تتوقف عن الصراخ. ولما حاول أن يقترب منها لإيقافها، ولو بالقوة هذه المرة، دفعته بكل ما تملك، وصفعته في جانب رأسه، وبدأت فجأة في لعنه، وفاضت هي وغضبها المشحون كله، تخرج منها الكلمات التي لم تنطق بها يومًا، والكلمات التي لم تكن لتتصور أنها قد تلوث أنوثتها بها، والكلمات التي يصل صداها المظلم إلى قبور أجداد سليم العليمي. وكلما أطلقت شتيمة بدأ كلامها يتضح أكثر وأكثر، ويخف صراخها لصالح الكلام الذي كان لا بد أن يقال.

لو كانت تهاني قد توقفت عند الكلمات فحسب، لتغير مسار التاريخ الذي عرفه الناس لعشرين عامًا قادمة. صحيح أن الجدران امتلكت عشرات الآذان لحظتها، كل يأمل أن يلتقط ولو صدى ما يقال، أو يسمع بوضوح- لحسن الحظ أو سوئه- كل ما يجري، ولكن الكلمات وحدها تنتهي إلى النسيان، وتخاريف العجائز، ومبالغات النساء. ما قامت به تهاني لحظتها لم يكن- في نظرها- سوى الريشة التي قصمت ظهر البعير، ولكنه كان- كما سمعه الجميع- السبب الرئيسي في دمار عائلة العليمي. ذلك أن تهاني، في موجة الغضب تلك، بدأت تتلقف كل ما يقع في يديها محاولة خلق مسافة تعزلها عن زوجها، أو تنفره من اقترابه الدائم منها، متجنبة لمسته التي شعرت بالاشمئزاز منها للمرة الأولى على الإطلاق.

ألقت عليه منفضة السجائر، ربطة شعرها، كفيها العاريتين، وكلماتها الأكثر قذارة، ولم يبد أنها قد تنجح، ووجدت نفسها فجأة تمسك بأسلاك كانت تمتد إلى الخط العمومي خارج النافذة، كل واحد منها في يد، وما إن اقترب سليم أكثر إلا وأطبقت على جسده بالأسلاك الكهربائية من الجهتين، ولم تنتظر- ولو لثانية- لتفكر في أثر ما فعلته وقتها.

كان سليم العليمي محظوظًا للغاية، بل وربما عاش أكثر أيام حياته حظًا، أو خدع القدر وحيله كما يقول، أو ربما كان ابنه من فعل، لا فرق، فجسده الموضوع بين طرفي الأسلاك لم يصعق، وهذا كل ما يهم. اتضح- في وقت لاحق- أن المحولات الكهربائية احترقت، والخط العمومي صار مقطوعًا

بالكامل عن هذا الشارع من حارة العنبرود. أما سليم الذي كان أقرب إلى الصدمة المشبعة بالخوف منه إلى أي شيء آخر قبل تلك اللحظة، فانقلب فجأة إلى سليم آخر لم تر تهاني مثله من قبل، فتغيرت ملامحه، وملأ الفراغ الذي عرفته في عينيه فراغ أكبر، أحلك، ومشبع بالحقد أكثر من أي شيء آخر:

- تحاولي تقتليني؟! تشتي تقتليني أنا؟ أنا؟ أنا يا تهاني؟ هذي آخرة العشرة والسنين؟ تحاولي تقتليني يا بنت ال...

فيهوي عليها بكفه حتى أرداها أرضًا بضربة واحدة، ويكرر أمام جسدها الساقط الاستفهامات ذاتها، والصراخ المهول ذاته، ويجمع من ظلام الغرفة المتراقص مع رفرفات الشموع ظله، وغضبه، وألمًا لم يعرف كنهه، وينصرف خارجًا من الباب الذي دخله قبل دقائق، لكن هذه المرة، دون نية للعودة، ولم يحصل أنه قد عاد عبر ذلك الباب، ولو حتى ليجلب آخر أغراضه، أو ليرى تهاني لمرة أخيرة.

❊ ❊ ❊

٢٢

ترجل فؤاد العليمي من سيارته ورفع بصره إلى النوافذ ذاتها التي سرح فيها والده ذات مرة، ورأى فيها المشهد ذاته، وفهم تمامًا لِمَ أدمن والده كل تلك النظرات المنبعثة من كل نافذة، ومن خلف كل ستارة، لكنه تمنى- بخلاف والده- أن يستبدل النظرات بالكلمات المنسية، أو تلك التي حاول والده دفنها منذ انتزعه من سرير المشفى قبل عشرين عامًا.

ولكن الأعين التي حاصرت خطواته لم تكن تنوي أن تحكي أي شيء، فهي لا تهمها الروايات القديمة وتحريفات ما قبل عقدين حين يُصنع الحدث أمامها. وفؤاد كان يدرك هذا تمامًا، فقط زوجته لم تستوعب كل تلك النظرات التي هزتها إلى النخاع، وهي وإن سمعت من فؤاد بعض الحكاية، إلا أنها كانت تحتاج إلى أن تَخبَر حارة العنبرود لتستشعر تيارات الأحاديث تخترق كيانها، وتمحص في عينيها بحثًا عن تاريخها، وأهم من كل شيء، تاريخ زوجها الذي بدا وأن الجميع يعرفه، حتى وإن عرفوا العالم بدونه فحسب، وبعد رحيله.

- ألم تغادركم الغربان يومًا يا عم ناجي؟!

صاح فؤاد موجهًا خطابه إلى صاحب بقالة البركة الذي كان، كغيره، يراقب تحركات الشاب، ليجيبه بدوره:

- رحم الله أبوك، ما كان أحد يعرف بوجوده حتى، ولكنك لا تشبهه، يكفي أن تحضر لتجذب إليك كل العيون. لا يا عليمي، ذهبت الغربان معك، وعادت بعودتك! بالله عليك أقنعها بأن تعتقنا من عذابها!

فيبتسم فؤاد، ويهز رأسه قبل أن يلج العمارة من بابها الحديدي العريض:

- لا عليك! سأحملها معي في السيارة، مع نهاية اليوم.

ويسمع مع كلماته تلك خرير الهمسات من الدرج، وانفجارات متعاقبة لأبواب موصدة، ويتمنى من جديد لو يحكي له أحد ما حدث في غيابه، وما عنته كلمات العم ناجي.

ما إن وصل فؤاد إلى أمام باب الشقة حتى توقف. أمسك بيد زوجته، ونظر في عينيها باحثًا عن اطمئنان ما، فنوافذ شقتهم كانت الوحيدة التي لم تش بساكنيها، فربما لا ساكنين فيها أصلًا، ولولا أنه عرف في الباب آثار حفره عليه، لتيقن أن غير والدته استولى على آخر ما عرفه من عائلة موحدة، لا يعرف عنها إلا ما ملأ به ذاكرته، وطيفًا تحمله مراسلات نادرة لوالديه.

لم يطلّق سليم العليمي زوجته تهاني بنت حسن الجماعي على الإطلاق. لم يرها بعد ذلك اليوم، ولكنه لم يطلقها، ولم يتخل عنها تمامًا كذلك، فقد كانت مصاريفها تصلها شهريًا من أحد معارف سليم، ولم تتوقف يومًا طيلة السنين الماضية، إلا لفترة عرفت تهاني فيها أن سليم تعرض خلالها لحادث سيارة أقعده لأشهر.

سكن سليم لأسابيع لاحقة بعد الحادثة في بيت قريب له ومعه فؤاد الذي لم يبك ليطالب بوالدته حتى، لا لأنه لم يفقدها، بل لأنه رأى في وجه الرجل الذي ظنه والده انفجارًا وشيكًا، وعرف من كلماته القليلة معه أن لا عودة لأي منهما إلى ذلك البيت، وفهم أن والدته حاولت قتله، دون تفاصيل، ودون أن يستفسر، أو يميل لتصديق الخبر أو تكذيبه.

فؤاد الذي عرف الخوف في انعكاسه في أعين الآخرين، وزحف ظله بحثًا عن أمان الوصول، عرف حينها خوفًا جديدًا لم يكن يخاله موجودًا، ووجد نفسه يفقد والديه، ويفقد حق الخوف الطبيعي، ولا يعرف من أين قد يأتيه الغد، ولم يجد ما ينسيه الفوضى والشتات إلا آثار الحروق على نصف وجهه الأيمن، يمرر يده عليها، ويحاول الاعتياد على وجهه الجديد، أو ربما يحاول أن يتذكر كيف كان يبدو قبل أسابيع، أو كلاهما في الوقت ذاته، وحفظ بانشغاله ذاك كل التعرجات والنتوءات التي أعادت تشكيل وجهه، وأخبر نفسه أنه صار شخصًا آخر، وربما من الأجدر به أن يغير اسمه حتى.

❊ ❊ ❊

٢٣

عرف فؤاد حينها، من أقاربه، أن والده على اتصال بقريب له في السعودية، وفهم أنهم سينتقلون إلى هناك، ولم يستغرق الأمر الكثير حتى صاروا إلى جوار رجل يدير مصنعًا صغيرًا لـ "بلك" الاسمنتية، ووجد والده يعمل كما لم يعهده من قبل. وفهم بعد سنين أنه لو لم يسافر حينها، ولو لم ينفجر على دفعات صغيرة كل نهار في أعماله الشاقة تلك، لكان ارتكب حماقات ندم عليها، أو ربما لصب كل قهره على فؤاد ذاته.

ليس الأمر وكأن فؤاد لم يحاول أن يتحدث إلى والده يومًا حيال أحداث ذلك اليوم، أو لم يجرب طريقة تعيده إلى والدته، ولكن عيني سليم كانتا تعودان إلى الغضب الأول ذاته، مع فارق مسحة حزن أقحمتها السنين في كل نوبات غضبه، وابتساماته القليلة، وبحة صوته التي رافقته منذ ذلك اليوم المشؤوم.

لم يجرؤ فؤاد في أعوامه الأولى على تحدي والده، ولم يجد الحيلة في أعوامه اللاحقة للعودة إلى أمه، وشغلته الأيام والمستقبل المنهك الذي بدأ يخطط له في الأعوام التالية، ووجد أن طيف والدته الخافت يغدو أكثر خفوتًا مع الوقت. لم يختف يومًا، ولكن خفوته كان يترافق مع انشغاله في حياة جديدة وجد فيها سعادة أكبر، حتى تمنى ذات يوم، في لحظة ندم عليها، لو يختفي ذاك الطيف الذي يربطه بالمرأة التي تجالس وحدها طيف حضوره في شقة

واسعة في حارة العنبرود، ويتركه ليعيش.

لولا تلك الأمنية، وعذاب الندم الذي أقض مضجعه لأسابيع إثر مراودتها لخيالاته، لما تجرأ على اتخاذ قرار مفاجئ دون علم والده، عائدًا إلى حارة العنبرود، وواقفًا بقلب مرتعد أمام الشقة التي ترك فيها الطفل الذي كانه، والأم التي أكدت له أن روحها ستفارق جسدها إن فقدته، وإن تطلب الأمر، فإنها مستعدة لإنهاء حياتها إن حصل له مكروه ذات يوم.

❊ ❊ ❊

٢٤

فتح فؤاد العليمي باب الشقة، إذ كان قد اكتشف أن والده لا يزال يحتفظ بالمفتاح في درج منضدته، وخطر على باله أنه يخترق عنوة بيتًا لا يعرفه، ولكنه لم يشأ أن يشعر بأنه غريب عن الدار. وتمنى أن يشعر بانتماء العائدين إذا ما فتح الباب عنوة، تمامًا كما يفعل أصحاب الحق، كل حق.

خطا فؤاد بثقة إلى الداخل، فقد كان يعرف أين تحب والدته أن تجلس في صباح كهذا، واطمأن في دخوله بالأحذية التي عرفها، مطروحة كما كانت مذ تركها، وشعر لحظتها بأن الغربان لم تكن الثابت الواحد في الحي، بل حتى الغبار الملتصق بجدران البيت، ورائحته، والحضور الذي يطغى على كل من يدخله.

كانت تهاني تجلس هناك، حيث عرفها، جسدها النحيل استسلم أكثر لتنقيب الزمن عما تبقى من قوتها، حتى ظهرت التجاعيد حول عينيها، وتدلت حبة الخال التي أحبها إلى الأسفل، وظهرت على رأسها بقع هجرها الشعر، وترهلت من جانبيها دهون لم يعرفها. تجلس تهاني في الديوان، وحدها، أمامها طاولة صغيرة عرف لونها والخربشات عليها، اعتلتها قطعة قماش ومكواة، وعلى جسدها الأسمر ذاك الدرع الذي اشتغل عليه في آخر ساعاته في غرفة الدروع، وتفاجأ للغاية لأنه تذكره.

تعلقت عيناهما ببعضهما، ولم يجرؤ أي منهما على أن يقول شيئًا، حتى أن زوجة فؤاد تفقدت ذاتها، فقد راودتها للحظة فكرة أنها قد لا تكون موجودة، إذ لم يبد أن في المسافة بين عيني فؤاد ووالدته وجودًا آخر باستثناء سيل من الذكريات، وصمت لا يشبه العائدين من البعيد، ولا الأمهات وأبنائهن، ولم يخترق كل هذا الفراغ إلا تعليق فؤاد، مشيرًا بيده إلى القماش بين يديها:

- ذاك الخط مائل قليلًا، هاته من يدك لأصلحه!

لتنفجر تهاني لحظتها باكية، تمامًا كما فعلت قبل عشرين عامًا، وتنتحب كالأطفال، دون أن يتمكن أي كان من تشفير محتوى كلماتها المعجونة بالدموع، ما عدا فؤاد الذي كان يعرف ما تعنيه تمامًا، خصوصًا أنه هو أيضًا بدأ يسيل وجعًا أمامها وهو يزيح الطاولة، ويضم والدته إليه.

في تلك اللحظة بالذات، لم يشغل حارة العنبرود، بأكملها، إلا الصمت، حتى الغربان التي لم تتوقف عن النعيق سابقًا انغمست في الانصات، وتركت الوجود، كل الوجود، للصرخات القادمة من شقة في عمارة على سفح جبل في محيط صنعاء، وللولد الذي بكى والدته، وبكته، وشكرا بعضيهما لأن أيًا منهما لم ينتزع حياته من الآخر، وآمن بأن الآخر ينتظره.

استسلمت زوجة فؤاد بدورها لثقل اللحظة، وبدأت هي أيضًا تبكي، وتتمنى لو يؤكد بكاؤها وجودها أيضًا، وانتماءها إلى كل هذا الألم، ورغبتها العميقة في انتشال زوجها من حزن عرفته في الحروق التي تحسستها في ليلة زواجهما، ولم تره ينفجر إلا اليوم، والرجل الذي عرفته صارمًا عنيدًا يرتعش كقط مبلل

في حجر المرأة التي حاول أن ينساها.

لم تنته الأحضان إلا وفؤاد يمسح عن عينيه دموعًا مخضبة بكلمات متقطعة، وبدأ محاولات شغلت باله لأيام لكي يقنع والدته بأن تترك الحارة، وتأتي معه إلى السعودية:

- هذه حارة شؤم يا أمي، وجودنا فيها هو أصل كل المصائب!
- هذه حارتي يا فؤاد، ولا أقدر في عمري هذا أن أرحل، لا أقدر، الأمر ليس بتلك السهولة!
- بل هي حارة ملعونة، أصابني الضيق مذ دخلت إليها، ولا أظنني عائدًا إليها غدًا يا أمي، تعالي معي!
- لا داعي لشرح ما أعرفه وتعرفه ويعرفه كل من يمر بهذه الحارة يا ابني، ولكنني تركت في جوف هذا الجبل أوجاعي كلها، وحين رحلتَ ووالدك عني...
- لست أنا من رحل، بل هو من أخذني، غصبًا عني والله!
- ... حين رحلت ووالدك عني، كان هذا الجبل واقفًا هنا، لم أتزحزح أنا ولم يتزحزح هو، حتى صرت أخاف أن أرحل وينهار على نفسه، إذ حشوت جوفه، كل جوفه، بكل شكوى وكل ضيق وألم، ولا أطيق أن أرحل وأترك الحارة تنهار على نفسها. صرت أتخيل أحيانًا أنني، بكل الحكايات التي صيغت حولي، أشبه بنسيج هو كل ما يجمع

هذه الحارة ببعضها، وكل ما يحتفظ بهويتها القديمة، وتاريخها الذي لم تتوقف النساء عن سكبه كله فوقي، وكأنهن يتخلصن من عبئه، ويرمين كل شيء في المزبلة التي هي أنا، ولكنني لا أمانع، ما دام الجبل هنا، فأنا لا أمانع!

- بل هي حارة مشؤومة يا أمي، حتى العم ناجي يترحم على والدي وكأنه قد مات، فأل سيء ذاك العجوز الهرم!
- ما لا تعرفه يا ابني كثير، كنت مجرد طفلٍ حينها، ولا علم لك لا بـ "شطحات" أهل الحارة، ولا بما حصل لي ومحاولاتي الكثيرة لأراك. ما لا تعرفه كثير!
- إذًا قولي لي، كلميني!
- مرت عشرون سنة بالفعل، لا شيء يستحق عناء اللوم الآن!
- لا داعي لهذه الكلمات يا أمي، كلماتك فيها لوم بالفعل، فلم لا تسكبين كل شيء مرة واحدة، فأنا موجود!
- قلت لك يا ابني، لا طاقة لي بالبوح، ربما يجدر بك فقط أن تعرف أن أهل الحارة يظنونني قتلت والدك، جميعهم شاهدوه يغادر العمارة حيًا يرزق، ولكن عشرين عامًا من الكلام في هذا الحارة كفيل بقتل الأحياء وبعث من في القبور! لا أدري كيف جاؤوا بكل ذاك الكلام، ولكنني، كما قلت لك، لا أمانعه، هذه حارتي، وما

حصل لي أستحقه.

وحين لم تُجدِ الحوارات الطويلة في إقناع والدته، رغم امتدادها لساعات وترددها بين شد وجذب، وحجج وعتاب ولوم، وقبلات على الرأس وللأقدام والأيادي، فإنهما اتجها إلى كل حديث آخر، وكأنهما اتفقا على النسيان. وشعرت زوجة فؤاد أخيراً بوجودها، بعد أن خاطبتها تهاني للمرة الأولى، وقبلتها على خدها، موصية إياها بولدها، ومستفسرة منها عن تفاصيل لم يكن غيرها قادرًا على إخبارها بها.

- غدًا أرسل سيارة أجرة تصحبك إلى المدينة!

همس فؤاد في أذن والدته متجنبًا أن تلتقط الآذان التي انصهرت والجدران كلماته. وقبَّل والدته مودعًا، وماسحًا عن عينيها دمعتين، ظنهما بداية نحيب جديد لم يشأ أن يصير. ووعدها بجولة أخرى، مؤكدًا أن تغييرها للموضوع لن ينسيه، وأنه كما عرفته منذ اليوم الأول، ما كان ليستسلم بتلك السهولة، ولولا أن أهل زوجته أصروا عليه لما تركها بسرعة، ولولا أن الضيق اعتمر في قلبه مذ دخل الحارة لما فكر في الرحيل.

عودة فؤاد وزوجته إلى السيارة صاحبتها الأعين ذاتها، ولكن خيوط الشمس الغاربة فضحتها هذه المرة، وبدا له أن بإمكانه أن يرى ما خلف تلك العيون، وشعر لسبب ما بشفقة تجاهها، وتمنى لو تنشغل بأي وجود آخر سواه، أو ربما لو انشغلت بنفسها لكان خيرًا لها.

نافذة واحدة كانت تراقب حركة الحارة العجيبة، والزائر الغريب، ويملؤها

قلق لا يشبه قلق الآخرين، وأسئلة لا علاقة لها بأسئلة الآخرين، فهي لم تعتد على الغربان بالكاد لتعتاد تصرفات سكانها الذين بدوا كلهم أشبه بأسراب غربان ضخمة، عوضت عجزها عن الطيران بانغماسها في الكلام، وعوضت عرجتها بالالتفاف حول ثوابت الحي، والكلام الذي لا يموت.

راقبت عائلة المذحجي، كلها، فؤاد وزوجته من نافذة واحدة، دون محاولة تستر حتى، وتركوا لخيالاتهم أن تسرح مع السيارة التي غابت في الأفق، مغتسلة بأشعة الشمس المخضبة بدم كانوا واثقين من قدم تاريخه وهوس الناس به، وعرفوا- دون أن يتمكنوا من تفسير الشعور الغريب الذي اعتراهم- بأن حارة العنبرود ستعود لكونها حارة طبيعية قريبًا، وأن حشود الغربان البشرية التي خرجت من بيوتها وأطلت من قضبان نوافذها، هي الطبيعية هنا، لا تلك الغربان التي حلقت بعيدًا ملاحقة سيارة من طراز "ليلى علوي"، عبر جبال تطل على صنعاء، وتحت سماء تظل أكثر بكثير مما تحتمله عائلة عادية جدًا كعائلة المذحجي.

❊ ❊ ❊